كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

إلى القرآن الكريم

الشيخ محمود شلتوت

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون: ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩١ – رمضان ١٤٠٣ – يولية ١٩٨٣

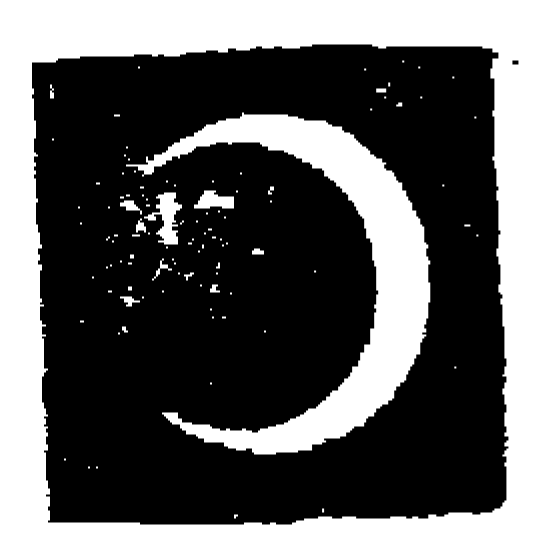
No. 391 — July 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج شيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كـتـاب الـهـلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــــلاف بريشـــــــة
الفنـانة سميحة حسـنين

إلى القرآن الكريم

•

بقلم
الشيخ محمود شلتوت

•

دار الهلال

مقاصد القرآن

القرآن الكريم : آخر كتاب أنزله الله هداية للناس اجمعين : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ، واتقوا لعلكم ترحمون » ، « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » .

ومن هنا كان العمل على ما يقرب للناس معناه ، ويفتح لهم باب التفقه فيه ، من أهم ما يجب على القادة والمرشدين ..

وقد رأينا أن نقدم هذه الطريقة التى ترسم الخطوط الاولى للموضوعات التى يتضمنها الربع من القرآن حتى تصبح مقاصده بارزة ومسالك فهمه واضحة ، فتأخذ مكانها من القلب ، وتتجه النفس الى التوسع فى التفقه والمعرفة . وسنبدأ ان شاء الله من أول القرآن ، بحديث نجمل فيه مقاصد القرآن جملة ، ونشير الى أساليبه التى اتخذها سبيلا للدعوة اليها .

ونرجو أن يكون هذا بمثابة منار يهدى الى معرفة ما هو من مهمة القرآن فيطلب منه ، وما ليس من مهمته فلا ننتظره منه ، ولا نكره آياته عليه .

وان نظرة فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى :
« ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » لترينا ان مقـــــاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحية العقيدة ، وناحية الاخلاق ، وناحية الاحكام .

فالعقائد : تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية ، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية ، وهى تشمل ما يجب الايمان به فى جانب الله من صفات الجلال والكمال ، وما يجب الايمان به فى جانب الوحى والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين ، وما يجب الايمان به فى جانب اليوم الآخر من البعث والجزاء .

والاخلاق : تهذب النفس وتزكيها ، وترفع من شأن الفرد والجماعة ، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الانسان : وتشمل : الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد، والحلم ، والجود ، والرحمة ، وغيرها مما يحقق فى الانسان ثمرة ايمانه بالله وصفاته التى يجب أن يكون عليها عباده .

أما الاحكام : فهى ما بينه الله فى كتـــــابه ، أو بين أصوله من النظم التى يجب اتباعها ، فى تنظيم عـلاقة الانسان بربه ، وعلاقته بأخيه الانســـــان ، وتشمل : أحكام الصـلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، واليمين والنذر ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العبادات التى تغذى الايمان ، وتنمى ثمراته الطيبة . وتشمل : أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ونفقة ، ورضاعة ونسب ، وعدة ، ووصية ، وارث ، وما الى ذلك ممـا يدخل فى دائرة الاحوال الشخصية ، أو أحكام الاسرة.

وتشمل : احكام البيع ، والاجارة ، والرهن ، والمداينة ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية .
وتشمل : أحكام الجنايات ، والجرائم ، كالقتل ، والسرقة ، والافساد فى الارض ، والزنا ، والقذف ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العقوبات : وتشمل : أحكام الحرب والسلم وما يتبعهما من غنائم وأسرى ومعاهدات ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الاحكام الدولية العامة .

مصادر التشريع الاسلامى

وقد عرض بعد هذا كله لمصادر التشريع ، وبين أنها الكتاب والسنة ، واجتهاد أولى الراى ، أرباب العلم بالمصلحة فى نواحى الحياة .

كما عرض لاساس الحكومة فى الاسلام وهى الشورى ، وجعلها من أخص أوصاف المؤمنين .

اساليب الدعوة

هذه هى الخطوط الاصلية لمقاصد القرآن الكريم .. أما الاساليب التى اتخذها سبيلا للدعوة الى تلك المقاصد فهى :

اولا : الارشاد الى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء ، لتعرف أسرار الله فى كونه ، وابداعه فى خلقه ، وبذلك تمتلىء القلوب ايمانا بوجوده وعظمته عن نظر واقتناع ، لا عن تقليد وابتداع .

وبهذا السبيل كرم الله العقل ، وفتح له باب البحث عن خواص الاجسام واسرار الكائنات في الارض ، والسماء ، والماء ، والهواء ، كي ينتفع بها في حياته ، ويستخدمها في التعمير والانشاء .

ثانيا : قصص الاولين ، أفرادا وأمما ، الصالحين منهم والمفسدين ، وقد أورد القرآن في ذلك كثيرا مما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد الى سنن الله في معاملة عباده، وهذا هو مقصد القرآن من ذكر قصص الماضين .. فلم يذكره على انه تاريخ يحدد الزمان والمكان والاشخاص ، ويرتب الوقائع ويبين الاسباب والنتائج ، ولم يذكره على أنه أساطير تتحدث عن الغرائب والاعاجيب التي يسمر بها الناس في النوادي والمجتمعات .

ثالثا : ايقاظ الشعور الباطني في الانسان فيندفع الانسان بوحي هذا الشعور الى التساؤل عن مبدئه ، وعن مادته ، وعن حياته ، وعن مآله ومصيره ، حتى يصل الى الاعتراف بخالق القوى والقدر ، وواضع الاسباب والمسببات ، رب الارض والسموات ، مدبر الامر ومصرفه ، وتلك هي الفطرة التي ذكرها الله بقوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » .

رابعا : أما الاسلوب الرابع الذي اتخذه القرآن في الدعوة الى مقاصده ، فهو أسلوب الانذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، وللقرآن في ذلك طريقان :

أحدهما : الوعد والوعيد عن طريق الحياة الدنيا : يعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين

في الارض ، وينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك ، وتسليط الاعداء .

وثانيهما : للترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذى لاينقطع، الصافى الذى لا يشوبه كدر . والترهيب من الكفر والافساد فى الارض والطغيان على عباد الله بعد بعذابها الدائم المهين .

هذه مقاصد القرآن الكريم ، وتلك أساليبه فى الدعوة ..

فعلينا أن نتجه الى القرآن فنرتل آياته ، أو نسمعها . ونستخلص أحكامه ، ونعرف أغراضه .. وعسى أن نجد فى هذا ما يقرب لنا الامر ، ويسهل علينا التفقه بالقرآن ، فنعمل به فى خاصة أنفسنا ، وأهلينا ؛ ومواطنينا ، وبذلك نحصل على رضاء الله واسعاده فى الدنيا والآخرة :

« والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين » .

محمود شلتوت

الفصل الاول :

الفاتحة وسورة البقرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۞

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة ، وتسمى أم الكتاب ، هى احدى سور خمس فى القرآن الكريم بدأت باثبات الحمد لله (١) .

(*) وقد أجملت الفاتحة كل ما فصل فى القرآن الكريم من اثبات التوحيد والبعث . وبيان الطريق المستقيم الذى يسلكه الانسان فى تنظيم حياته مع ربه ومع نفسه ، ومع الناس : فالجملتان « الحمد لله رب العالمين » ، « الرحمن الرحيم » تثبتان توحيد الله فى الخلق والتربية عن طريق الرحمة الواصل اثرها الى عباده . والجملة الثالثة : « مالك يوم الدين » تثبت النشأة الآخرة التى يقع فيها الجزاء على الاعمال . والجملتان « اياك نعبد ، واياك نستعين » تقرران مبدأ عبادة الله وحده ومبدأ عجز الانسان واحتياجه الى معونة ربه ، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبادة والاستعانة .

وجملة « اهدنا الصراط المستقيم » ، توجه الانسان الى طلب الاحكام التى ينظم بها شأنه من الله سبحانه

---

(١) وهى : الفاتحة . الانعام . الكهف . سبأ . فاطر

* فى تفسير الاجزاء العشرة الاولى للقرآن الكريم ـ راجع كتابنا : تفسير القرآن الكريم ـ الجزء الاول

وتعالى فهو المعلم ، وهو المشرع ، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع .

الناس أمام شرع الله

وجملة « صراط الذين أنعمت عليهم » ترشد الى أن الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاثة : فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى أضيف اليهم ، وعرف بهم ، وكانوا فيه قدوة لغيرهم ، وهم « المنعم عليهم » وفريق جحدوا صراط الله وأحكامه عنادا واستكبارا وهم « المغضوب عليهم » ، وفريق متردد بين الظهور بالايمان وبين استبطان الكفر وهم « الضالون » .

وبذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة فى المبدأ والمعاد ، وبها كمال الانسان من الجانب العلمى ، واستوفت طريق العمل الصالح ، وبه كمال الانسان من الجانب العملى ، وأشارت الى تاريخ البشرية الفاضلة فى التزام الحق عن العلم والعمل ، وهذا اجمال لكل ما فصل فى القرآن الكريم ، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب ، وأم الكتاب .

سورة البقرة

الربع الاول :

※ سورة البقرة هى أطول سورة فى القرآن ، واول سورة مدنية فيه ، وقد اشتملت على بيان طوائف الناس بالنسبة للانتفاع بالقرآن وعدم الانتفاع به ، وتوجيه الخطاب الى الناس عامة بعناصر الدين ، والتنبيه الى بعض أدلة التوحيد فى النفس والآفاق ، والتذكير بمكانة الانسان التى أعد لها فى هذه الحياة .

طوائف الناس أمام القرآن

بدأت السورة فنوهت بشأن القرآن الكريم ، وانه حق لا ريب فيه ، وأن الذين ينتفعون به انما هم « المتقون » الذين سلمت فطرهم من تسلط المادة المظلمة ، والعصبية الغاشمة ، فآمنوا بالله واليوم الآخر ، وعرفوا حق الله فأقاموا الصلاة ، وحق عباده فأنفقوا فى سبيله « ومما رزقناهم ينفقون » وعرفوا ان رسالته فى جميع الازمان واحدة ، فآمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه

★ يشتمل القرآن على ثلاثين جزءا . وكل جزء يحتوى على أرباع والربع هنا من أول سورة البقرة الى نهاية الآية ٢٥

وسلم ، وما أنزل من قبل : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

ثم تقابل هؤلاء بطائفة ثانية تبجحت بالعناد ، وتحكمت فيهم النشأة الضالة ، حتى انسدت عليهم طرق الهداية وصاروا لا يرجى منهم خير ولا ايمان ، وهؤلاء هم الذين أيأس الله من ايمانهم نبيه ، وقال فيهم : « سواء عليهم أانذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

ثم ذكرت السورة طائفة ثالثة ، هي شر ما ابتلى به الحق وأهله في هذه الحياة وهم المنافقون ! .. أنكرت قلوبهم كالكافرين ، ونافقوا ، وقابلوا المؤمنين بوجه والكافرين بوجه . وقد تحدث الله عنهم في الربع الاول بثلاث عشرة آية ، أظهر دخيلتهم وأغراضهم ، ومرض قلوبهم ، وذبذبتهم بين هؤلاء وهؤلاء : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . ثم زادهم توضيحا فضرب لحيرتهم مثلين : مثل من أضاءت حوله النار ثم انطفأت عليه ، وتركته في ظلمة لا يهتدى فيها الى صواب .. ومثل من أخذته السماء بمطرها وظلمتها ورعدها وبرقها ، فأخذ يتحين الخلاص مضطربا في شأنه ، خائفا من الهلاك ، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره ، ان الله على كل شيء قدير .

وأخيرا يوجه الخطاب الى الناس عامة ، فيطلب منهم عبادة الله وتوحيده ، والايمان برسالة محمد ، ويقرر الجزاء ، وفي سبيل ذلك يلفت نظرهم الى نعمته عليهم بالتربية والخلق ، وبتسخير الارض ومنافعها ، والسماء

ومائها فى الحصول على الرزق والثمرات ، ويتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الكلام ، ثم يحذرهم ـ ان لم يفعلوا ولن يفعلوا ـ النــــار التى وقودها الناس والحجارة .

وهنا يأتى الامر بتبشير المؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ، جمعت لذائذ المــادة والروح ، وهم فيها خالدون .

الربع الثانى :

ضرب الامثال فى القرآن

(*) من سنة الله فى القرآن أن يستخدم فى البيان ضرب الامثال تقريبا لمــا يجب أن تنفعل به النفوس ، وتؤمن به القـــلوب .. فضرب مثلين للمنافقين وضرب الشجرة الطيبة مثلا للــكلمة الطيبة .. وضرب الذبابة والعنكبوت مثلا للشفعاء والاولياء الذين اتخذهم المشركون معبودات ليقربوهم الى الله ..

وقد جاء هذا الربع يقرر ان الله لا يمتنع من ضرب الامثال بما يوضح ويبين ، دون نظر الى قيمة الممثل به فى ذاته أو عند الناس : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما . بعوضة فما فوقها » .

★ من الآية ٢٦ الى نهاية الآية ٤٣ من سورة البقرة

اما الناس فهم امام هذه الامثال فريقان : فريق يفهم القصد الذى ترمى اليه ، ويكون لها أثرها الحسن فى نفوسهم .. وفريق يتعلق باسم الحيوان الذى ضرب به المثل ، ولا ينظر الى المعنى المقصود ، فيتساءل متعجبا ، مستهزئا ، منكرا ، ماذا أراد الله بهذا مثلا !؟ . ويتخذ ذلك سبيلا لايقاع الشك فى قلوب الناس ، وهذا شأن الفاسقين الذين خرجوا بأنفسهم عن هداية الله فى خلقه ، وأساليب البيان التى طبع عليها كل لسان ، هؤلاء الذين كان من خروجهم عن هداية الله ، نقض عهد التوحيد والهداية ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رسالته المتتابعة ، والافساد فى الارض ـ يسجل الله عليهم الخسران فيقول : « أولئك هم الخاسرون » . ثم يتعجب من كفرهم واستمرارهم على هذا الفسوق مع وضوح دلائل التوحيد والايمان فى انفسهم : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون » ، وفى الآفاق : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » .

الحكمة فى خلق الانسان

ثم يذكر الناس بما اقتضته حكمته فى خلق النوع الانسانى ، مزودا بقوى العقل والادراك ، وقوى العمل فى هذه الحياة : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى

الارض خليفة » .. ثم بما كان من الملائكة فى الاستفسار عن الحكمة فى خلق هذا النوع ، وهو - على ما يعلمون - ذو شهوة وغضب ، بهما يفسد فى الارض ، ويسفك الدماء . وعندئذ صور لهم قدرة الاشياء ، وطلب منهم الاخبار بها ، فظهر عجزهم عما يقدر عليه الانسان ، فعلموا أنهم لا يستطيعون الخلافة فى الارض التى أختير لها ذلك النوع القدير على معرفة هذه الخصائص والانتفاع بها ، فآمنوا بحكمة الله ، وانقادوا لأمره سبحانه فى تعظيم آدم وسجدوا كما أمروا : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر » . نفس شريرة ، عتت عن أمر ربها ، وكانت من الكافرين ، ومنح الله آدم منزلة التكريم ، وجعل له زوجا من نفسه يسكن اليها ، ومكنهما من متعة المادة ، بعد متعة المودة ، ثم اختبرهما - لحكمته البالغة - بالنهى عن الاكل من شجرة معينة ، ولكن الشيطان الذى أبى أن يسجد وقف لآدم بالمرصاد ، وما زال يغريه وزوجه حتى زلا ووقعا فى المخالفة ، وعندئذ أنزلا حيث التكليف ، وحيث العمل ، وحيث المنازعات والمنافسات : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » . وعندئذ أدرك آدم خطيئته ، فتلقى من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، وقرر له ولذريته نظام حياتهم ، وطريق سعادتهم وشقائهم : « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

حاجة الانسان الى الوحى

وعبرتنا من هذه القصة ، ان الله خلق الانسان وجعله مستعدا للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الارض ، يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهرا لرحمة الله بعباده . وليخلق فيه روح المكافحة خلقه مستعدا أيضا للتأثر بداعية الخير ، وداعية الشر ، وبين له ان عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة ، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق . وبذلك كان الانسان فى حاجة الى الوحى الالهى يقيـــه ويحفظه من دواعى الشر ، وعلى هذا المبدأ أرسل اليه الرسل ، وأنزل الكتب تذكيرا بما يسعده ، وتنفيراً مما يشقيه ، فيجب علينا أن نعرف أنفسنا بغرائزها ، وأن نحصنها بهداية الله من كيد الشيطان ، وأن نلتزم ارشاد الله وأحكامه حتى نفوز برضاه ، ونحصل على اسعاده .

الربع الثالث :

دعوة الرسول

* سورة البقرة نزلت بعد أن هاجر المسلمون الى المدينة ، وصارت لهم بالهجرة وحدة خاصة ، وجوار ممن

★ من الآية ٤٤ الى نهاية الآية ٥٩ من سورة البقرة

أوتو الكتاب من قبل ، وقد كان من المرتقب أن يلبى هذا الجوار الجديد دعوة النبى الذى يجدونه مكتوبا عنــدهم فى التوراة والانجيل ، وكانوا يطلبون به قبــل مجيئه النصرة على أعدائهم ، ولكن خاب الفأل وضاع المرتقب ، وحملهم الحسد والبغى على الاعراض والتكذيب والانكار، فتحدثت السورة عنهم فى أربع وثمانين آية ، بداها الله وختمهــا بندائهم ونسبتهم الى أبيهم ، يستحثهم على الايمان ، ويذكرهم بنعمته عليهم : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهــدى أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصــدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، لا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصــلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

انحراف رؤساء بنى اسرائيل

ثم بدا بيكت الرؤساء ـ الذين يتلون الكتاب ، ونصبوا أنفسهم لتعليم الناس أحكامه ـ على أنهم يتركون أنفسهم للشهوات والاهواء دون تزكية ولا تطهير مع أنهم فى الوقت نفسه يأمرون الناس بالبر والخير ، ويحكمون لهم بالهدى والايمان ، أو يحكمون عليهم بالضلال والكفر، ويرشدهم الى الطريق الذى يقــودهم الى الخير فى انفسهم وفى جماعتهم « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون » .

ثم يعود فيذكرهم مرة أخرى بالنعم التى أنعم بها عليهم فى شخص أسلافهم ويحذرهم يوم العدل والقصاص : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » .

تذكيرهم بنعم الله

ثم يأخذ بهم الى الماضى فيذكرهم بتنجية اسلافهم من فرعون ، وقد كان يذيقهم سوء العذاب ، يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ، ويذكرهم بأن انجاءهم كان بأسلوب الهى لا قدرة للانسان عليه ، ولا سبيل له فى الاهتداء اليه : كأن يفلق البحر وتهيئة طريق لهم فيه حتى اذا ما جاوزوا البحر ونجا جميعهم ، واتبعهم فرعون وجنوده ، أطبق البحر على فرعون وقومه وغشيهم من اليم ماغشيهم ، واضل فرعون قومه وما هدى : « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . نعمة مزدوجة ، فضل وقدرة ، انجاهم وأهلك عدوهم .

ويذكرهم بعفوه عنهم حينما عبدوا العجل فى غيبة موسى ، ويذكرهم بنعمة انزال التوراة التى بها يعرفون الحلال والحرام ، ويفرقون بين الحق والباطل ، ويذكرهم بعلاجهم من اثر الصاعقة التى أخذتهم حينما تمردوا ، وقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » .

ويذكرهم بنعمته عليهم حينما جبنوا عن دخول الارض

المقدسة ، وقالوا : « ان فيها قوما جبارين » ، فقضى عليهم بالبقاء فى الصحراء ، تائهين أربعين سنة ، تأديبا واعدادا لذرية صالحة منهم . يذكرهم وهم فى ذلك التأديب بنعمة تظليلهم بالغمام ، يقيهم وهج الشمس ، وشدة البرد ، ونعمة انزال المن والسلوى ، ابقاء لهم ، ورحمة بهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

ويذكرهم بما كان منهم بعد أن خرجوا من التيه ، وبعد ان رأوا نعمة الله عليهم فيه : يذكرهم بتمكينه اياهم من دخول الارض المقدسة ، والتمتع بخيراتها ، ويأمرهم بالشكر على النعم ، وتقدير الفضل والرحمة ،والاعتراف بالذنب . ولكنهم مع هذا كله يبدلون قولا غير الذى قيل لهم : يستمرئون العصيان ، وينغمسون فى الطغيان ، فينزل عليهم العذاب : « رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » وهكذا سنة الله فيمن يكفر بنعمه فلا يستمع لواجب الشكر ، ولا يقوم بحق العبودية ، وينزل فى أفعاله وسلوكه على حكم الشهوة والهوى .

<u>الربع الرابع :</u>

نزق وطغيان

* والحديث فيه لا يزال مع بنى اسرائيل ، يذكرهم بالنعم على أسلافهم فضلا ورحمة وبالنقم عظة وتأديبا ،

★ من الآية ٦٠ الى نهاية الآية ٧٤ من سورة البقرة

أقاموا فى صحراء التيه وانقطع عنهم المـاء ، فطلب لهم موسى السقيا من ربه ، فيأمره أن يضرب الحجر بعصاه ، فتنفجر منه عيون الماء ، فيأكلون ويشربون ، ويأخذ الله عليهم العهد بأن لا يفسدوا فى الارض .

يذكرهم الله بهذه النعمة ، ويذكرهم بتمردهم فى طلب الماديات ، كما تمردوا بطلب رؤية الله من قبل : « لن نصبر على طعام واحد » . نزق وطغيان فهم يعلمون انهم فى صحراء لا ماء فيها ولا زرع ، ولا تنبت شيئا مما يطلبون، ولكن العناد والتمرد ، يذهب بصاحبه فى الضلال كل مذهب ، ويطلب به الادنى بدل الاعلى ، « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هـو خير ؟ » ، ومع هـذا فلكم ما سألتم : اخرجوا من التيه وادخلوا مصرا ، تنبت لكم أرضها ما طلبتم ، وقوموا بحق الله ، واستمعوا لانبيائه، ولـكنهم يصرون على طريقتهم ، ويقتـلون النبيين بغير الحق ، ويعصون أوامر الله ، ويعتدون على الحقـوق والحرمات ، ولا يزالون كذلك حتى يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، ويبوءوا بغضبه ونكاله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

ايمان وعمل

وبعد ذلك ترشد الآيات الى ان أســاس النجـاح والخسران ليس فى النسبة الى رسول ما ، دون الاخذ بأحكامه وارشاداته ، وانما هو فى صدق الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فمن يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، ويعمل صالحا « فلهم أجرهم عند

ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . وفى هذا ارشاد الى أن القيم الرفيعة لا تحفظ عند الله بالاحساب ، ولا بالانساب ، وانما تحفظ بمعان فاضلة تملأ القلب وتظهر آثارها الطيبة فى الحياة .

عود الى التذكير بالنعم

ثم تعود الآيات الى تعداد النعم ، فتذكرهم بأخذ الميثاق عليهم أن يعملوا بالتوراة وأن يأخذوا أحكامها بقوة ، وأن يتجهوا الى اصلاح أنفسهم بها لعلهم يتقون .
وتذكرهم بآية من آيات الله ، كان جديرا بهم أن يعتبروا بها ، وأن يعلموا أن القادر عليها قادر على أن يقبلها عليهم ، فيصبحوا بها جاثمين ، ولكنهم ظلوا بعدها على شأنهم فى العناد والمكابرة ، ومع هذا فقد امتدت اليهم رحمة الله ، وعاملهم بفضله واحسانه ، ولم يشأ أن يأخذهم بآياته : « فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » . ثم تذكرهم بما كان من بعض أسلافهم حينما أمرهم الله ان يتفرغوا فى يوم السبت لعبادته فعصوا ، محتالين بطريقة عجيبة وهى أن يحجزوا السمك يوم السبت فى حظائر ويتركوه فيها ليأخذوه فى اليوم الذى بعده ، فضرب الله عليهم الخزى وسلبهم خصائص الانسانية الفاضلة ، وملأ قلوبهم بالطمع والشره ، شأن القردة ، وكانت تلك عقوبة ظاهرة فيهم ، وفى أسلافهم من بعد : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » .

ثم تذكرهم الآيات بموقف من مواقف العنـــاد التى وقفها آباؤهم من قبل ، وكانت سببا فى التشديد عليهم : تقع فيما بينهم حادثة قتل لا يعرف فيها القـــاتل ، ويختلفون على أنفســـهم فيه ، فيلتجئون الى موسى ويطالبونه بمعرفته ، فيأمرهم بناء على ارشاد ربه أن يذبحوا بقرة ، فيقابلوا الامر بالاستهزاء ويسألون عنها : فى سنها ، فى لونها ، فى شأنها كله ، حتى ضيقوا على أنفسهم ، ولم يعثروا عليها الا بعد شدة ، فتذبح البقرة ويضرب القتيل بجزء منها ، فيحيا ويخبر بقاتله ، ومع هذه الآية الواضحة القوية تظل قلوبهم قاسية ، فهى كالحجارة او أشد قسوة « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منهـــا لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عمـا تعملون » .

الربع الخامس :

عناد ونفاق

* وقد كان النبى صلى الله عليــه وسلم وأصحابه يطمعون فى أنهم يسارعون الى الايمان به وذلك نظرا الى أنهم أهل دين سماوى ، أصوله هى أصول رســالته وكتابهم يبشر به ويذكر أوصافه ، ولكن الله يعلم منهم خلاف ذلك ، فهم سلالة هؤلاء الذين احتفظ لهم التاريخ

★ من الآية ٧٥ الى نهاية الآية ٩١ من سورة البقرة

بكثير من المساوىء الدينية ، ومواقف العناد والمكابرة لرسلهم ، ولم يعملوا على تطهير أنفسهم مما كان عليه الاسلاف ، وقد قص الله على نبيه فيما سبق كثيرا من مساوئهم ، كما قص عليه كثيرا من النعم التى كان يعالجهم بها ، المرة بعد الاخرى ، وفى هذا وجه الخطاب الى النبى وأصحابه باستبعاد ايمانهم ، وبأنهم على عكس ما يطمعون . واخذ يلفت الانظار الى أنهم فى الانحراف عن الحق يشقون طريق أسلافهم ، ويسيرون على منهجهم ، فمنهم فريق يسمع كلام الله ويفهمه على وجهه الصحيح ، ثم يحرفه ويصرفه الى غير وجهته ومنهم فريق ينافق المؤمنين فيظهر لهم الايمان ، ويذكر ما يجده فى التوراة من أوصاف محمد ، واذا خلا بعضهم الى بعض تعاتبوا وتلاوموا ، وقالوا لبعضهم : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون » .

ومنهم فريق لا يعلمون التوراة الا تلقفا من أفواه الاحبار والرؤساء على حسب ما أرادوا لها من التحريف والكذب والتدليس . هؤلاء الرؤساء الذين يكتبون الكتاب للناس بأيديهم على حسب أهوائهم ، وينشرونه عليهم « ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » .

هذه بعض خلالهم ، فكيف تطمعون فى سرعة ايمانهم ؟

اكاذيب مردودة

ثم اخذ يتتبع كلماتهم المسمومة التى كانوا يلقونها على مسامع الناس ليشككوهم فى صدق الدعوة ، ويصدوهم عن تلبيتها ، شأن المبطلين فى محاربة الحق فى كل عصر

وفي كل مكان ، كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » « ولن تمسنا النار الا أياما معدودة » وكانوا يقولون : « قلوبنا غلف » : مقفلة ، لا تدرك شيئا مما يقول ، ولا تتجه اليه، فيرد الله عليهم بأن تأقيت العذاب أو خلوده لا يعرف الا من جهته سبحانه ، فهل أنزل عليكم فيه وحيا ، واخذتم به عليه عهــــدا « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » ؟

الجزاء من جنس العمل

وليست المسألة عند الله مسألة محاباة بحب أو بنوة ، وانما هي ذات مبدأ عام ، وحكم عام ، ان تحقق المبدأ تحقق الحكم ، وان لم يتحقق المبدأ لم يتحقق الحكم ، وبنو اسرائيل وغيرهم في المبدأ والحكم سواء : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

هذا هو المبدأ ، ونحن اذا جئنا نطبقه على حالتهم ، وجدناهم قد أخذ الله عليهم الميثاق أن يعتقدوا الحق ، وأن يفعلوا الخير : « واذا أخـذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » . كما أخذ عليهم الميثاق الا يفعلوا الشر ولا يقترفوا المحرم : « واذا أخذنا ميثاقكم لا تســـفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . ثم وجدناهم قد نقضوا العهدين ، فتولوا عن فعل الخير ، وتظاهروا بالاثم والعدوان . واذن فبحكم المبدأ ليس جزاء من يفعل ذلك منهم : « الا خزي في

الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

ايثار الدنيا سبب البلاء

ثم كشف لهم الغطاء عن سبب هذه المخالفة الكامن فى نفوسهم ، وانه هو ايثارهم الحياة الدنيا وزخارفها على الآخرة ، واهمالهم بذلك تعاليم أنبيائهم الذين أرسلوا اليهم واحدا بعد الآخر يدعونهم الى الهدى والحق فلم يحفلوا بهم ، واستكبروا عن اتباعهم « ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » . أما قولكم : « قلوبنا غلف » فواقع الامر ان الله لم يخلق القلوب غلفا مقفلة ، وانما خلقها مستعدة لقبول الحق ، وهم بكفرهم ، وضعوا عليها الغلاف والقفل : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » ، وها هم أولاء يعلمون أن نبيا سيبعث ، مصدقا لما معهم وكانوا يطلبون به الفتح على أعدائهم قبل مجيئه ، « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وضعوا الغلاف على قلوبهم ، وباعوا أنفسهم بالشهوات والاهواء ، وكفروا بالله ورسوله ، لا نزولا على حجة ، وانما بغيا وحسدا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده « فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » .

***

وكان من كلماتهم التى يبررون بها عدم ايمانهم ، اذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » فهو الذى نثق بأنه من عند الله ، ولا شأن لنا بغيره ، فيرد الله عليهم : بأن القرآن الذى يطلب منهم

الايمان به ، هو « الحق » الذى تنشده الفطرة ، ويشهد بصحته الوجدان ، وهو مصــدق لما أنزل عليهم ، فاذا كفروا به فقد كفروا بما أنزل عليهم . ثم كيف يقبل منهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم . وقد قتلوا أنبياء الله الذين بلغوا اياه !؟ وكيف يقبل منهم وقد حفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى بعد أن جاءهم بالبينات ، وأنهم قالوا حينما أخذ عليهم الميثاق بما نزل عليهم : « سمعنا وعصينا » ؟ أهذا ايمانهم بما أنزل عليهم !؟ « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

الربع السادس :

مزاعم باطلة

★ والحــــديث فيه لا يزال فى شــأن بنى اسرائيل المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومناقشة كلماتهم التى كانوا يسممون بها جو الدعوة ، ويلبسون بها على الناس . وقد كان فيها قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » ، ومعناه أنهم لا يؤمنون بما ســواه . فرد الله عليهم بأن القرآن الذى يطلب منهم أن يؤمنوا به هو الحق ، وأنه مصدق لما أنزل عليهم ، فكيف يزعمون أنهم يؤمنون بما انزل عليهم ؟! وكيف يصدقون فى هذا وقد قتلوا أنبياءهم من قبل ، وحفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل

★ من الآية ٩٢ الى نهاية الآية ١٠٥ من سورة البقرة

من بعده وأنتم ظالمون » . ثم يختم الرد عليهم بقوله : « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

ثم يرد عليهم مزاعم أخرى باطلة كانوا يقولون : ان الدار الآخرة خالصة لنا لا ينال نعيمها أحد سوانا ، فقيل لهم اذن : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . ثم يتحداهم بما لا يعجزون عنه . ويستخرج السبب الواقعى الذى تنطوى عليه قلوبهم من حب الدنيا وشدة الحرص عليها : « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » ، « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا » . ثم يكشف عن واقع أمرهم : « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » خوفا من العذاب الذى يلاقونه ، ولكن ليعلموا ان التعمير فى الدنيا مهما طال أمده ، لا يبعدهم عن عذاب الله ، فهو لاحق بهم لا محالة ، ولكل بداية نهاية ، ولكن أجل كتاب ، « والله بصير بما يعملون » .

ثم كان من كلماتهم فى عدم الايمان بمحمد قولهم : ان الذى ينزل عليه بالوحى هو جبريل ، وان جبريل بينه وبينهم عداوة ، وقد رد الله عليهم بأن جبريل ما هو الا رسول . نزله باذنه على قلب محمد ، وبأن ما نزل به جبريل لم يكن مخالفا لما عندهم ، بل كان مصدقا له ، وكان هاديا ومنقذا من الضلال ، واذن فعداوة جبريل ، عداوة لمن نزله ، وتكذيب منهم لما عندهم ، وعداوة للهداية . والعاقل لا يرفض الهداية أيا كان مصدرها .

ثم يوضح الله الحق فى هذا الشأن ، وهو أن ما نزل به جبريل أو غيره من الملائكة على محمد ، او على غيره من الانبياء هو فى حقيقته من الله وبأمر الله ، فمن اتخذ

أحدا منهم عدوا فقد عادى الله ، ومن عادى الله ، عاداه الله : « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » .

الاسلام دين الفطرة

ثم أخذ يطمئن النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما أنزله عليه من آيات بينات واضحة لا يكفر بها الا من فسد طبعه ، وزاغ عن فطرته . فلا تكترث يا محمد بكفر هؤلاء الذين فسقوا عن أمرنا ، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، وهذا شأنهم فى العهود ، وهو كشأنهم فيما ينزل مصدقا لما معهم . وتكذيبهم لما يصدق ما معهم تكذيب لما معهم ، وبهذا يصيرون كأنه لم ينزل عليهم بشىء ، وكأنهم لا يعلمون .

ما كفر سليمان وما ضل الملكان

نبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، وأخذوا يصرفون الناس عن النظر فى الحقائق بالاوهام والاكاذيب ، التى كان يخترعها المردة المفسدون عن ملك سليمان ، وعما أعطاه الله للرجلين الصالحين ببابل هاروت وماروت .

كانوا يخترعون أن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة . وان الملكين عندهما أشد أنواع السحر التى تفرق بين المرء وزوجه ، ولمثل هذه الاحاديث شيوع ،

فشاعت بين الناس حتى تأثروا بها ، واتخذوها ديدنهم في الحيـــاة ، وشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل خير وفضيلة . وقد بين الله الحق فيما اختلفوا على سليمان وعلى الملكين ، وقرر ان سليمان ما كان ساحرا وما كفر بنعمة ربه ، انمـــا كان هاديا ورسولا ، وأن الملكين : الرجلين الصالحين ما كانا بمفســـدين فى الارض ، ولا بمدلسين على الناس ، وانما كانا ناصحين أمينين : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا انمـــا نحن فتنة فلا تكفر » ، ولكن المفسدين أنكروا على ســليمان النبوة والملك الالهى ، كمـــا أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين فى معرفة خصائص الاشياء وأسرار النفوس، وزعموا ان ما عندهما وما عند سليمان سحر وشعوذة ، وبهما بلغا ما بلغا ، فاتبعوه على ما رسموا وتخيلوا ، وأخذوا ينفثـــون به فى الروابط البشرية لتحـــل ، والصلات الانسانية لتقطـــع : « يفرقون به بين المرء وزوجه » ، بين الوالد وولده ، بين الاخ وأخيه ، بين الصديق وصديقه ، وبالتالى بين الرسول وقومه ، وبين الناس وهداية الله ، « وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به انفسهم لو كانوا يعلمون » .

وعبرتنا من تلك القصة أن نعنى بالحقائق النافعة ، ولا نشغل أنفسنا بالاوهام والخيالات .

ثم تحذر الآيات المؤمنين مخاطبة النبى ببعض الكلمات التى كان يستغلها المعاندون فى الاستهزاء بالرســول ، وتأمرهم بالسمع والطـاعة وتتوعد المستهزئين بالعذاب

الاليم . ثم ترشد الآيات الى ان عناد الكافرين منشؤه كراهتهم أن ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، ولكن الله يختص برحمته من يشاء ؛ والله ذو الفضل العظيم .

الربع السابع :

المعجزة شأن من شئون الله

* والحديث فيه أيضا لا يزال في بنى اسرائيل ، وقد كان من كلماتهم في التأثير على الناس وصرفهم عن الايمان بمحمد ، أنه لم يأت بمعجزة تدل على أنه رسول من عند الله ، وكانوا يطلبون معجزات موسى وعيسى ، كان العرب مثلهم فى هذا الشأن ، فرد الله عليهم بأنه لا يترك معجزة من المعجزات السابقة التى يذكرونهـــا ويطلبون مثلها ، أو التى أنساهم اياها فلا يذكرونها ، الا أتى لرسوله محمد بمعجزة هى خير من المعجزات السابقة ، أو مثلها على الاقل فى الدلالة على صدقه « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

فالمعجزات شأن من شئوننا ، نختار منها ما نعلم أنه أوفق للمصلحة ، وأقدر على الاقناع وأنسب للعصر . ثم أخذ يذكرهم بسؤال أسلافهم لموسى ؛ وحذرهم أن يسألوا محمدا كما سئل موسى من قبل ، وأشار الى ان هـــذا عدول عن الايمان الى الكفر : « ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » . وفى هذا تحذير لضعاف

---

* من الآية ١٠٦ الى نهاية الآية ١٢٣ من سورة البقرة

الايمان من المؤمنين أن يسمعوا لكلامهم ، أو يسيروا فى طريقهم وقد أرشدهم الى ان هؤلاء المشككين يودون أن ترجعوا كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاحذروا التأثر بهم ، ولا يحملنكم بغضهم اياكم ان تعتدوا عليهم : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » ، وعليكم بتطهير أنفسكم بالصلاة ، وتقوية روابطكم بالزكاة : « وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله » .

ثم يعود فيذكر بغرور المكذبين ، وزعمهم أنه لن يدخل الجنة الا من كان منهم ، ويطالبهم ببرهان ذلك ان كانوا صادقين . ويقرر ان أساس الاجر عند الله هو اسلام الوجه لله ، والاحسان الى عباد الله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

مسلك مخرب

ثم أخذ يطمئن المؤمنين بأن خطة هؤلاء فى التشكيك والتكذيب والانكار ، ليست شأنا خاصا بكم ، وانما هى شأنهم حتى فيما بينهم : ينكر بعضهم على بعض ، ويجهل بعضهم بعضا ، والكتاب بين أيديهم ، يزعمون أنهم يؤمنون به ، وانهم أرباب الدين الخالد ، وبهذه الخطة الفاسدة التى فرقت كلمة الله اعتدى بعضهم على بعض ، وتحاربوا حتى خربوا أماكن العبادة ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وتقام عبادته . وما كان لهم ان يختلفوا فى مثل هذا الشأن ، ولا أن يعتدى بعضهم على

بعض بسببه ، فلله المشرق والمغرب ، يعبد فى كل مكان : « فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » . ولم تقف بهم هذه الخطة الفاسدة عند حد الاعتداء عليكم ، أو اعتداء بعضهم على بعض ، بتخريب أماكن العبادة والتقديس ، وانما امتدت أهواؤهم الى الجانب الاقدس، فزعموا أن لله ولدا ، وطلبوا أن يكلمهم أو يخصهم بآية من عنده ، فيرد عليهم بأن له ما فى السموات والارض، وبأن كل من فيهما قانت له وخاشع ، وانه خالقهما ومدبرهما ، وانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون. واذا كان هذا شأنه فى الملك والتصريف والايجاد ، فكيف يكون له ولد ينفصل منه وينسب اليه بالجزئية التى هى أساس البنوة والابوة : « لم يلد ولم يولد » . ويرد عليهم فى طلب مكالمته اياهم : بأنه طلب التعنت والاعراض عن الآيات : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

توجيه ونصح

ثم وجه الخطاب الى النبى صلى الله عليــــه وسلم بتأكيد ارساله بالحق بشيرا ونذيرا ، وبأنه غير مسئول عن كفر من كفــــر ، واعراض من أعرض ، وبأن هؤلاء لا يرضون عنك حتى تترك ما أنت عليه من رسالة ربك وتتبع ملتهم . ثم تحذر الآيات اتباعه فى شخصه أن يتبعوا أهواءهم ، ويتأثروا بهم ، بعدما ظهر لهم من العلم والهدى ، وتنذرهم اذا هم سلكوا طريقهم بحرمانهم من ولاية الله ونصرته : « مالك من الله من ولى ولا نصير » .

هذا شأن الكثرة الســـــاحقة من هؤلاء الذين كنت يا محمد تطمع فى ايمانهم وسرعة تلبيتهم قد بيناه ، ومع هذا ففيهم من يرجى خيره ، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته ، ويتفهمون حكمه وأسراره ، فأولئك هم الذين يصح أن تعلق بهم رجاء الايمان ، وتطمع فى تلبيتهم دعوتك : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » ، أما الاكثرون من الرؤساء المعاندين ، والمقلدين الجاهلين ، فأولئك هم الخـــاسرون ، الذين لا ينبغى ان تكترث بهم ، ولا أن تطمع فى ايمانهم .

ثم تعود الآيات وتستحثهم على الايمان ، وتناديهم كما نادتهم أولا بنسبتهم لاسرائيل ، نبى الله يعقوب ، وتذكرهم بنعمة الله عليهم ، وأنه لا يليق بمن كرمه ربه ، وفضله بالحكم والنبوة ، أن يكون حظه من هداية الله الجحود والانكار . وفى سبيل هذا تنذرهم كما أنذرتهم من قبل باتقاء يوم الحساب والجزاء : « يا بنى اسرائيل أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العــالمين ، واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » .

الفصل الثانى :

سورة آل عمران وسورة النساء

ســـورة آل عمران

الربع التاسع :

أصيب المسلمون فى غزوة أحد بما سجلته سورة « آل عمران » وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرا من كلمات الشماتة والتخذيل : « لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ها هنا » ، « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » ، « لو أطاعونا ما قتلوا » .

جزاء الشهداء

(*) وقد أرشد الله فى هـذا الربع الى حملة من العلاج الذى يحفظ على المسلمين قوتهم المعنوية من التأثر بكلمات الشماتة والتخذيل . وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بقتلى أحد ، الذين جادوا بأنفسهم فى سبيل الله، انهم ليسوا ــ كما يظن هؤلاء ــ أمواتا توارت أجسامهم ، وطويت صفحتهم ، وذهبوا الى حيث لا يذكرون ، بل لقد

★ من الآية ١٧١ الى نهاية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران

ارتقى بهم ايمانهم واستشهادهم الى العندية القدسية ، تشرف عليهم فيها أنوار التجليات ، ويتمتعون بما أعد لهم من الفضل الالهى : « فرحين بما آتاهم الله من فضله» ، وفرحين بما رأوا من المكانة التي أعدت لاخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، يشقون طريقهم بايمان مثل ايمانهم ، وجهاد مثل جهادهم . تركوهم يستجيبون لله وللرسول ، غير مكترثين بأراجيف المرجفين ، ولا فتن الضالين المكذبين ، بل قالوا : حسبنا الله ، واتبعوا رضوانه . وما زادتهم الفتن والاراجيف الا ايمانا على ايمان ، وقوة على قوة : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بهؤلاء المرجفين ، ان ارجافهم — وهم الشياطين المفسدون — لا يؤثر الا على مثل أتباعهم ضعاف الايمان ، فاسدى العقيدة ، وليس له سلطان على المؤمنين الذين يملأ الايمان قلوبهم فيحفظها من التأثر بالاراجيف والفتن ، وسينزل بهؤلاء المفسدين الجزاء الذى يستحقون : « انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » .

عبر من الهزيمة

وكان مما أرشدوا اليه حكمة الهزيمة التى أصيبوا بها وهى : ان الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، وليس من شأنه فى ذلك أن يوحى بما فى الضمائر من خبث ونفاق ، وانما شأنه وسنته أن

يصطفى رسلا يدعون الى الايمان وفى ظل السلم يختلط الكاذب بالصـــادق ، والخبيث بالطيب ، فيجرى الله احداثا ويسوق شدائد ، تميز الخبيث من الطيب وتطهر جماعة الايمـــان الحق ، فيوافيهم بالنصر والتأييد : « فآمنوا بالله ورسـله وان تؤمنوا وتتقوا فلـكم أجر عظيم » .

عاقبة البخلاء

وكان مما أرشدوا اليه ان هؤلاء الذين يقبضون عن الانفاق فى سبيل الله ، ويبخلون بمـا آتاهم الله من فضله : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » ويكون حملا ثقيلا فى اعناقهم لا يستطيعون التخلص من تبعاته ، وسيرجع ما بأيديهم الى الله الذى له ميراث السموات والارض ، والذى أنعم عليهم به من فضـــله ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون .

وبهذه المنـــاسبة عرضت الآيات للتحقير من شأن كلمات كان يلقيها الاعداء بقصد الحط من مكانة الرسالة وصاحبها عليه الصلاة والسلام : « أن الله فقير ونحن أغنياء » « ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » . وتتوعدهم بالعذاب الاليم ، وتأمر الرسول بأن يرد عليهم بقوله : « قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » ؟

تســـلية

ثم تأخذ فى تسلية الرسول فى تكذيب القوم له ، بأن اخوانه السابقين قد كذبتهم أممهم من قبل بعد أن جاءوهم بالبينات ، وكان جزاء الرسل لما صبروا النصر والتأييد ، وجزاء القوم المكذبين الخزى والدمار .. وتلك سنتنا مع الاولياء والاعداء ، وستنقضى هذه الدنيا وتذهب كـل النفوس الى بارئهـــا وتوفى كل نفس ما عملت ، ويرى المؤمنون الصـــادقون ما أعد لهم من نعيم دائم ، ويرى الكافرون المكذبون ما أعد لهم من عذاب أليم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

الربع العاشر :

اعداد واستعداد

❋ بعد ان أرشد الله المؤمنين الى حكمة الهزيمة التى اصابتهم فى أحد لفت أنظـــارهم الى أن ما أصـــابهم فى تلك الغـــزوة ليس آخر ابتـــلاء يصيبهم من اعدائهم ، وأكد لهم انهم سيختبرون فى مستقبل حياتهم بالشدائد فى الاموال والانفس ، بالفعل وبالقول من فريقى المعارضين لهم ، وسيرون أذى كثيرا . فلا يظنوا ان الامر يقف عند حد هذه الغزوات الاولى ، فمرحلة الجهـــاد

★ من الآية ١٨٦ الى آخر سورة آل عمران

طويلة ، وتضحيات النصر كثـــيرة ، فليوطنوا أنفسهم عليها ، ويستعينوا على تحملها بالصبر والتقوى : «لتبلون فى أموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلـكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور » .

ثم أخذ يذكرهم بسوء عاقبة أعدائهم بجرائمهم التى اقترفوها وصدوا بها الناس عن الايمان بالحق ، فهم قوم نقضوا ميثاق الله ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، وفرحوا بما ارتكبوا فى جنب الله ،وعملوا جهدهم على أن يعتقد الناس فيهم أنهم أبناء الله ، وأحباؤه وحملوهم بذلك على أن يعظموهم وأن يسمعوا لدعوتهم في التأليب ضد الحق الذى يدعو اليه الرسول وصحبه المخلصون : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » .

الامر والتدبير لله وحده

وبعد أن تفرغ الآيات من ارشاد المؤمنين الى ما يجب عليهم من الصبر والتقوى فى مواقف الجهاد والاخلاص فى الدعوة ، والى ما سينزل بخصومهم من عاقبة كيدهم وطغيانهم ضد الحق وأهله ، تأخذ فى تقرير ربوبية الله ، وانه صاحب الامر والملك والتدبير فى السموات والارض ، لا شأن لاحد فيهما سواه . فهـو القادر على الوفاء بما وعد المؤمنين ، وما توعد به الـــكافرين : « ولله ملك السموات والارض والله على كل شىء قدير » .

وجوب النظر فى آيات الله

ثم تأخذ الآيات فى فتح أبواب العظة والاعتبار ، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الاهواء والشهوات ، وتحكم التقاليد الباطلة : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب » .

ثم تصف أولى الالباب بصفتين ، هما الحبل المتين الذى يصل الانسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان فى هذه الحياة : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته فى جميع أوقاتهم ، وفى جميع شئونهم ، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم فى خلق السموات والارض وما فيهما من اتقان وابداع ، وعجائب وأسرار ، فليس ذكرا ينطلق به اللسان ، ولا يدفع اليه الجنان ، انما هو ذكر ينبع من القلب الى سماء الرب ، فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء : « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » تنزيها لك عن الباطل فى خلقك وفعلك وحكمك : « فقنا عذاب النار » بدوام توفيقك وعنايتك . ثم يذكرون مآل غضبه سبحانه على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته ، فيكون دعاؤهم : « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من انصار » . ثم يؤكدون تلبيتهم لدعوة الحق التى ارتضاها لعباده على لسان نبيه ، ويلتمسون منه المغفرة والانعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم : « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان

ان آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد » .

هذا موقف الذاكرين لربهم ، المفكرين فيما خلق ودبر ، عرف منهم الصدق فى الايمان والذكر والتفكير والتنزيه ، « فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » لا تفاضل بينكم الا بالعمل والتقوى ، وقيام كل بما طلب منه .

ثم يذكر بعض أسباب النعيم وتكفير السيئات ، والمثوبة الدائمة . ويخص أهم ما يطلب من المؤمن وقت ثورة الكفر على الايمان ، فيذكر الهجرة والاخراج من الديار ، والايذاء فى سبيل الله ، والقتال والقتل ، ويجعل هذه أبرز دلائل الايمان ، وأقرب ما يوصل الانسان الى ثواب الله ورضوانه : « والله عنده حسن الثواب » .

تسلية وتوصية

ثم أخذ يسليهم عما كلفوه من مشاق الجهاد ، ويحذرهم الاغترار بتقلب الذين كفروا فى البلاد ، ويؤكد لهم انه متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد .

أما المؤمنون الذين اتقوا ربهم فمأواهم جنات تجرى من تحتها الانهار .

ثم يرشد احقاقا للحق الى أن من أهل الكتاب ، الذين يحاربونكم ويناصبونكم العداء ، طائفة تؤمن بالله ، وتؤمن بما انزل اليكم وما أنزل اليهم ، خاشعين لله ، لا يؤثرون

دنياهم الفانية على رضا الله الباقى . ويبين ان هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم وفى هذا أطماع لغيرهم من أهـل الكتاب فى أن يعـــدلوا عن موقفهم من المؤمنين ، وأن ينهجوا منهج اخوانهم الخـاشعين لله ، المحافظين على حدوده .

ثم تختم السورة بهذه الوصية الفذة ، التى بها يتحقق الخير كله ، وبها يعظم النصر ويحق الجزاء ، ويتم الفلاح: « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سورة النساء

الربع الاول :

(*) سورة النساء اطول سورة مدنية بعد سورة البقرة ، وهى سورة مليئة بالاحكام التى ينظم بها المؤمنون شئونهم الداخلية ، والاحكام التى يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم ، ويدفعون بها كيد الكائدين ، واغارة المحاربين . وسميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الاحكام التى تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد فى غيرها من السور ، ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » فى مقابلة « سورة النساء الصغرى » التى عرفت فى القرآن بسورة « الطلاق » .

الناس من أصل واحد

وقد افتتحها الله بنداء الناس كافة ، وأمرهم جميعا بتقوى الله ، وذكرهم فى سبيل ذلك الامر بنعمة الخلق

* من أول سورة النساء الى نهاية الآية ١١

والايجاد من نفس واحدة « خلق منها زوجها » وكان منها الناس جميعا رجالا ونساء ، وبذلك جمعهم أصل واحد : أبوة واحدة ، أمومة واحدة ، وربطت بينهم رحم واحدة ، هي رحم الانسانية العامة . ثم أعاد الامر بتقوى الله الذى اليه تفزع القلوب ، وتتوثق العلائق ، كما أمرهم بتقوى الارحام التى بينهم والتى ترجع الى أصل واحد ، كانت منه الشعوب ، والقبائل ، والاسر . وقد مهدت بهذا كله للأحكام التى وضعها الله للناس ليحفظ قويهم ضعيفهم .

رعاية اليتيم

ومن هنا ذكرت أحكام اليتيم الذى فقد أباه والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف ، والنساء اللاتى تنتظمهن ولاية الرجال ، ففى اليتامى أمرت بحفظ أموالهم حتى يتسلموها عند رشدهم كاملة غير منقوصة ، وحذرت الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » ، أو عن طريق الخلط « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم »» . ووصفت ذلك بأنه اثم كبير . كما أرشدت الى ترك التزوج من اليتامى عند خوف استغلال الحياة الزوجية فى أكل أموالهن ، وعدم العدل معهن ، وأرشدت الى ان لهم فى غيرهن من النساء متسعا للتزوج منهن ، واحدة ، ومثنى ، وثلاث ، ورباع .

وذكرتهم فى هذه الحالة أيضا بالعدل بين النساء حتى اذا لم يأنس الرجل من نفسه القدرة على العدل بين المتعددات من الزوجات ، وجب عليه الاقتصار على

واحدة ، تنزيها لنفسه ، واستبراء لدينه : « ذلك أدنى الا تعدلوا » .

تشريع المهور

وبهذه المناسبة أمرت باعطاء الزوجات مهورهن التى أطلق عليها « نحلة » أى فهى ليست أجرا ، ولا ثمنا ؛ وانما هى عطاء يوثق المحبة ، ويربط القلوب ويديم العشرة .

حفظ أموال اليتامى والسفهاء

وفى جانب السفهاء وهم الصغار الذين لا يعقلون والمجانين والمعاتيه ، وكل من لا يحسن التصرف ،حذرت دفع الاموال اليهم احتفاظا بها لهم ، وابقاء عليها للأمة ، فهى فى الواقع مال الجميع . واشارت الى تنميتها واستثمارها عن طرق التنمية والاستثمار المشروعة ، وجعلت رزقهم وكسوتهم من أرباحها لا من أصولها ، كما أمرت بمعالجة السفهاء من السفه بارشادهم الى الحكمة وحسن التصرف وفائدة حفظ الاموال . وأمرت بمثل ذلك فى جانب اليتامى : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم فى المعاملات حتى يتعودوا البيع والشراء . ثم حددت الوقت الذى تسلم فيه الاموال اليهم وهو وقت الرشد، بعد أن يصلوا الى سن البلوغ ، فمن لم يبلغ لا تسلم اليه أمواله ، ومن بلغ ولم يرشد لا تسلم اليه أمواله . وكانت تلك التعاليم مصدرا لقانون المجالس الحسبية

فيما يختص بالحجر على السفيه ، والقوامة عليه وعلى اليتيم . ثم أباحت الآية للأوصياء أن يأخذوا من أموالهم بقدر كفايتهم اذا كانوا فقراء : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » . ثم ختمت الآيات هذه الاحكام بتهديد الاوصياء فى أبنائهم الذين يتركونهم فى كفالة غيرهم ، ليفعلوا مع أبناء غيرهم ما يحبون ان يفعل الغير مع أبنائهم ، كما هددتهم بالعذاب الاخروى الذى صورته الآيات بأقوى ما يقلع من النفس جشعها : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » ، « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

الارث فى الاسلام

وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الاطفال ، ويقولون لا يرث الا من طعن بالرماح وزاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ، فأبطل الله ذلك وجعل الميراث بسببين اثنين : النسب والزوجية ، وبهما عم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، وجاء فى ذلك على وجه العموم .

أولا : قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » .

ثم جاءت آيات الربع الثانى وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والازواج والزوجات ، ثم أرشدت الآيات الى مبدأ له أثره العظيم فى تطبيب نفوس الذين يحضرون القسمة والتوزيع من

الفقراء والمساكين والاقارب الذين لا يرثون ، « واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » .

وهذه الآية مستند قوى لمن أراد لضريبة التركات مستندا الهيا كريما من كتاب الله ووحيه . أما المبادىء التى روعيت فى توزيع التركات وتقسيم الميراث ففى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين .. » .

الربع الثانى :

تفصيل الميراث

* بين الله فى هذا الربع ، وفى آخر آية من السورة، الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالوصف الذى قرره الله سببا للاستحقاق ، فذكر الارث بالبنوة ، وبالابوة ، وبالامومة ، وبالزوجية ، وبالاخوة وأهمل استحقاق الارث بالتبنى الذى كان معروفا عندالجاهلية، وقد جاء ذلك كله فى ثلاث آيات : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ... » ، « ولكم نصف ما ترك أزواجكم .. » ، « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة .. » وفى هذه الآيات الثلاث بين ميراث الابناء : « للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف » وميراث الوالدين : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس

★ من الآية ١٢ الى نهاية الآية ٢٣ من سورة النساء

مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فان كان له أخوة فلامه السدس » .

وميراث الزوج : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن » . وميراث الزوجة : « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » . ولا يخفى ما فى تقرير الارث بالزوجية من تركيز للأسرة على أساس قوى فى تبادل التعاون والشعور بالمسئولية المشتركة ، حتى كأن الزوجية نوع من النسب والقرابة الاسرية .

ميراث الاخوة

أما ميراث الاخوة فيتبع جهة الاخوة ، فميراث أخوة الامومة ذكر بقوله : « وان كان رجل يورث كلالة (من لا ولد له ولا والد) أو امرأة ، وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » .

وميراث الاخوة الاشقاء ، أو لاب ذكر فى الآية الثالثة التى ختمت بها السورة : « ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين » .

وجدير بالمؤمنين اذا قرءوا هذه الآيات أن يتدبروا قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم » ، وقوله :

« وصية من الله » ، وقوله : « يبين الله لكم أن تضلوا » وقوله : « تلك حدود الله » ، وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

جدير بهم أن يتدبروا تشديد الله في المحافظة على احكام الميراث كما بينها بيانا شافيا ، ليس محل اجتهاد ، ولا قابلا للتغيير ، فلا يتحدث منهم متحدث بالاستظهار على تشريع الله ، ولا تغيير احكامه ، وكتاب الله بين واضح ، يتلوه الصغير والكبير ، ويعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه .

الارث بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصايا

وقد صرحت الآيات بأن تقسيم التركة على المستحقين انما يكون بعد قضاء الديون ، وتنفيذ الوصايا التى لم يقصد بها حرمان مستحق ، أو ايذاء وارث . ومنه يعلم بطلان التصرفات التى تجيء على أساس من حرمان بعض الورثة ، فعادة حرمان الاناث بالبيع الصورى ، أو بالوقف الذى أراح الله الناس منه : « من بعد وصيته يوصى بها أو دين غير مضار ، وصية من الله والله عليم حليم ».

حفظ الاعراض

ثم تنتقل الآيات الى نوع من التأنيب لمن يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء وهو من قبيل التنبيه على الواجب بعد التنبيه على الحق : ففى فاحشة النساء « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن

اربعة منكم فان شـــــهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن ســـــبيلا » . وفى فاحشة الرجال « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » .

تعزير يؤدب به النساء أو الرجال فى فعل الفاحشة الخاصة بالجنس حتى يتوبوا ، والتوبة مقبولة عند الله على وجه اليقين اذا فعل الذنب بدافع من الشهوة أو الغضب ، وسارع المذنب الى الاقلاع والرجوع الى الله ، أما من يفعلهـــــا ويرجىء التوبة الى أن يحضره الموت ويستشعر مقدماته ، فتوبته مرفوضـــة قطعا ، وهى كتوبة الذين يموتون وهم كفار . أما توبة الذين يفعلون السيئات عن ألف واطمئنـــان ، ثم لا يتوبون عن قرب منها ، فالآية لم تصرح بحكم الله فيها ، فهو اليه ان شاء قبلها وغفر ، وان شـــاء رفضها وعاقب ، فليكن المؤمن منها على وجل : « انمـا التـوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحـدهم الموت قال انى تبت الآن » .

تحذير من عادات جاهلية

ثم تعود الآيات فتحذر من بعض العادات الجاهلية التى كانت تعامل بها النساء : كان الرجل يرث نساء أقاربه ، ويتخذها كالمتاع ليأخذ مالها . وكان يضـايق زوجته حتى تبذل له المهر الذى دفعـــه لها ليتزوج به غيرها ، وفى هذا وذاك اجحاف ايما اجحاف بالضعيف الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه ، وفيه تعريض للحياة الزوجية للاضطراب والتحلل ، وفيه اهمال لحق الرحم

الانساني العام ، وفي ذلك يقول الله : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، ويقول :

« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذوا بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

الربع الثالث :

المحرمات من النساء

* والكلام فيه ، لا يزال في الاسرة ، وفيما يختص بتكوينها ، وترشد الآيات هنا الى أصناف لا يحل التزوج بهن ، ولا تكوين الاسرة منهن ، وذلك لما بينهما وبين الرجل من صلات لا ينبغي تعريضها للفساد ، ويجب أن ترفع عن مزالق الحياة الزوجية . ومن هنا حرم التزوج بحلائل الآباء ، وقد كان العرب يفعلون ذلك ، وقال فيه القرآن : « انه كان فاحشة وساء سبيلا » ، وحرم التزوج بالام وان علت ، والبنت وان نزلت ، والاخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الاخ ، وبنات الاخت . وحرم بسبب طارىء وهو الرضاع المكون للبنية مثل ما يحرم بالقرابة . واقتصرت الآية على الامهات والاخوات ، وجاء في السنة الصحيحة « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وحرمت أم الزوجة وان لم يكن الرجل دخل ببنتها ، وحرمت بنت الزوجة اذا

★ من الآية ٢٤ الى نهاية الآية ٣٥ من سورة النساء

كان الرجل قد دخل بأمها . وحرمت حلائل الابناء الذين هم من الاصلاب ، وحرم تحريمـــا مؤقتا الجمع بين الاختين ، ومن فى معناهما ، كالمرأة وعمتها وخالتها ، وحرمت المتزوجات ، واستثنت الآية منهن المهاجرات المؤمنات اللاتى تركن أوزاجهن الـكفار ، وتبين صدق ايمانهن : « فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن » .

ثم صرحت الآيات بحل ما وراء هـذه المحـرمات ، مشيرة الى فائدة الزواج من أحصان الرجال والنساء ، والبعد عن المسافحة والمخادنة ، كما أوجبت بذل المهور ، وأشارت الى لزوم تخير الزوجات من العنـاصر الطيبة وهى الحرائر المؤمنات ، ومنعت التزوج من غيرهن الا عند العجـــز مع خوف العنت والمشقة ، والوقوع فى الفاحشة ، ومع ذلك فقد قال الله تعالى : « وان تصبروا خير لكم » . وذلك محافظة على البيئة الصالحة التى يكون منها النسل ، ويتربى فيها .

النهى عن آكل الاموال بالباطل

ثم عرضت الآيات بعد أن أرشدت الى الهدف من هذا التشريع وهو الهداية الى سبل السعادة والبعد عن حمأة الشهوات والمفاسد ، عرضت الى العنصر الثانى فى حياة الاسر والجماعات وهو « المال » فنهت عن أكله بالباطل ، والباطل كل ما لم يكن سببا مشروعا فى حل الاموال كالسرقة ، والغصب ، والرشوة ، واجرة البغاء ، والربا ، وما الى ذلك مما نهى الله عنه وله أثره السيىء

في سلامة المجتمع . ولما كان الاعتداء على المال ، من وسائل الاعتداء على النفس جاء في هذا المقام قوله تعالى: « ولا تقتلوا أنفسكم » ، وتوعدت الآيات بأشد العذاب من يعتدى على أخيه في ماله أو نفسه ، كما وعدت بتكفير صغائر الذنوب اذا ما اجتنبت هذه الكبائر : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » . ولما كان معظم أسباب الاعتداء ، تطلع المقل الى ما بيد المكثر ، وتمنى أن يكون ما في يد غيره في يده ، نهى الله عن ذلك ، وبين ان لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه فليستغل كل انسان مواهبه وقدرته في الكسب والعمل ، ولا يتطلع الى شيء غيره : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما أكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله » .

أما المال الذى يورث ولا يكتسب بالعمل فقد بينت الآيات المستحقين فيه وانصباءهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة عباده ، وهم أصحاب القرابة والزوجية ، فحافظوا على قاعدة الكسب ، وحافظوا على قاعدة التوزيع ، ولا يعتد بعضكم على بعض لا في كسبه ، ولا في ميراثه : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم » .

قوامة الرجل

ولما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتا في الاعمال والانصباء ، وكان ذلك مبعثا لفكرة التسوية عند من لا يحكمون الطبيعة ولا يفهمونها ، بينت الآيات أن

الحكمة فى ذلك ترجع الى طبيعة كل من الرجل والمرأة ، فكلف الرجل ، بماله من قوة ، بالجهاد والاعمال الشاقة ، ومنح بما عليه من تبعات مالية وغيرها نصيبا اكثر من نصيب المرأة ، وبهذا وذاك كانت له القوامة عليها : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

معنى قوامة الرجال

ثم أرشدت الآيات الى أن تلك القوامة ليست قوامة استعباد وتسخير وانما هي قوامة رئاسة ونصح وتأديب ، كالتى بين الرجل وأبنائه ، والراعى ورعيته . ومن هنا لم يكن لتلك القوامة أثر بالنسبة لصنف الصالحات القانتات ، وانما كان أثرها بالنسبة لمن يظن فيها النشوز والانحراف ، وبها كان الوعظ والتأديب الذى يجرى فيها بين الرجل وأبنائه « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . وكان اذا ما اشتد النشوز ، ووصل الى الشقاق والخلاف الحاد ، انتقل العلاج من التأديب الذى يباشر الزوج الى التحاكم عند الاهل والاقارب الذين يهمهم شأن الزوجين ، ويعز عليهم أن تتدهور الاسرة ، ويتشرد الاطفال ، وبقدر نية المحكمين ، واخلاصهم فى ارادة بعث الحياة الطيبة بين الزوجين ، يسدد الله خطاهم ، ويمنحهم من الوسائل ما يعيدون به الى البيت هدوءه واستقراره .

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، أن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » .

الربع الرابع :

الاحسان فى كل شىء

* والكلام فيه يتجه الى حفز النفوس نحو العمل بالاحكام التى بينتها السورة فيما يختص باليتامى والاسر وتكوين البيوت ، وذلك عن طريق التوجيه الى الاحسان العام ، والى ان سعادة المؤمن ليست معقودة بالاحسان الى أسرته واقاربه فقط ، وانما ترتبط بالاحسان الى كل ما يحتاج الى الاحسان .

ومن هنا أمر بالاحسان فى عبادة الله ، وهى أصل الخير كله ، والاحسان فيها أفراده بالعبادة والتقديس ، دون أن يكون لغيره شركة ما فيما هو من خصائص الالوهية ، ثم ذكر الاحسان الى الوالدين لانهما عماد الاسرة ، وفيها يشب المرء على الاحسان ، ثم يمتد الاحسان منها الى الاقارب والجيران والاصحاب ، والى كل أرباب الحاجات ، وبهذا ترتبط وحدات الامة على أساس من الرحمة ، وتصبح تلك الوحدات أسرة واحدة ، متعاونة فى السراء والضراء ، فيتحقق الرحم الانسانى العام الذى افتتحت بتقريره بين الناس ، ولفت النظر اليه ، سورتنا الكريمة .

ثم تشير الآيات الى أن التقصير فى هذا الحق الاجتماعى شأن صنفين من الناس : صنف يختال ويتكبر

★ الآيات من ٣٦ الى نهاية الآية ٥٧ من سورة النساء

ولا يرى لغيره حقا عليه ، فيبخل بنعمة الله على عباده ، وبذلك يشيع خلق البخل بين الناس ، فيبخلون كما يبخل ، ويتقطع ما بينهم من صلات ، وتحدث بينهم الضغائن والاحقاد : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » . وصنف يتعاظم على الناس فيحسن اليهم ، ولكن ابتغاء مدحهم اياه ، وتعظيمهم له ، دون أن يدفعه الى ذلك شعور بحق ، أو ايمان بالله : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » . ثم يسجل القرآن على هذين الصنفين ، ان الذى أغراهم بالبخل والرياء على هذا الوجه ، الذى يدل على حرمان النفس من الفضيلة ، انما هو الشيطان ، منبع الشر والرذيلة « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » . ثم تثير الآيات عجب الناس من هؤلاء فى أعراضهم عن الايمان بالله واليوم الآخر ايمانا يدفعهم الى القيام بالحقوق ، والاخلاص فى أدائها على وجه يغرس الفضيلة فى نفوسهم ، ويكفل لهم ثواب الله ورضاه ، مع أنهم لو اخلصوا لما فاتهم شىء مما يحبون ، ولحصلوا فى الآخرة على النعيم الدائم والجزاء الحسن « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها » ، وكيف يكون حال هؤلاء يوم يجمع الله الناس ويشهد على كل أمة رسولها ؟ . « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثا » .

علاج لادواء النفوس

ثم تسوق الآيات للمؤمنين علاجا من شأنه اذا قاموا

على وجهه هذب نفوسهم ، وطهر قلوبهم ، فلا تعرف الى البخل ولا الى الرياء سبيلا ، ذلكم العلاج هو « الصلاة الخاشعة » عصمة الانسان من الفحشاء والمنكر : « ان الانســان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » . وأرشدهم فى ذلك الى تدبرها واستحضار عظمة الله فيها : « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ، ثم تلفت الانظار الى تطهير الظاهر حتى تلتقى طهارته مع طهارة الباطن « وان كنتم جنبا فاطهروا » ، وتذكر بنعمة الله عليهم فى الاكتفاء بالطهارة الرمزية ، وهى طهارة التيمم حين لا يقدرون على الطهارة الحقيقية ، وهى طهارة الماء . ثم تعرض الآيات بعد ذلك لحالة طائفة يعلم المؤمنون من أمرها ما يعلمون ، من الاعراض عما آتاها الله من أحكام وهداية ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، واتخاذها لانفسها من عناوين التزكية كأبناء الله وأحبائه ، وما يوهمون به أنهم فى غنى عن العمل بنصيبهم من كتاب الله وشرعه ، وفى أثناء ذلك تهددهم الآيات بقوله تعالى : « يأيها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » .

هذا ما يلفت الله نظر المؤمنين اليه فى وجوب الاخذ بأحكامه ، وعبرتنا منه أن نرتفع بأنفسنا عن مواطن الذين يبخلون والذين يراءون ، ونعصم أنفسنا عن مسايرة هؤلاء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، واشتراء الضلالة ، وتزكية النفس بمجرد النسبة الى الرسول أو الاسلام ، فعلى هؤلاء الذين ينتمون الى كتاب الله ، ويقولون نحن

مسلمون لله ، أن يتدبروا هذا التهـــديد الالهى ، وأن يعلموا أن هذا التهديد سنة الله مع كل من أعرض عن ذكره ، ونبذ شرعه وأحكامه ، وحرف كلمة عن مواضعه ثم عليهم أن يستمعوا الى وعد الله لمن حاد عن طريقه « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . ثم الى وعده لمن التزم حدوده وأحكامه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنـــات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » .

الربع الخامس :

الامانة والعدل

* والكلام فيه لا يزال فى التشريع الداخلى الـذى يحفظ على الامة استقرارها وهدوءها . وقد ارشدت الآيات هنا الى أن أساس الانتفاع بهـذه الاحكام أمران لا تسلم أمة ولا تسعد الا بمراعاتهما ، والحرص عليهما ، وهما أساس الحكم الصالح ، وسبيل الحياة الطيبة : أداء الامانات الى أهلها ، والعدل فى الحكم بين الناس . والامانة اسم للحق الذى أودع عند الانسان ، وكلف

★ الآيات ٥٨ الى نهاية الآية ٧٣ من سورة النساء

حفظه ليوصله الى صاحبه الذى يملكه ، أو الذى ينتفع به ، فيشمل المال ، واداؤه تسليمه كاملا غير منقوص ، والعلم ، واداؤه تعليمه على وجهه الصحيح ، والرأى ، واداؤه ابداؤه لمن يحتاج اليه ، أو لمن بيده التنفيذ ، واداء الامانات يتناول تيسير طرق الوصول اليها ، كنشر الكتب المهذبة التى ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم ، وتنقية التعاليم الدينية من البدع والخرافات والاساطير التى تفسد على الناس دينهم وتصورهم ، كما يتناول تنظيم الطرق الزراعية ، وحفر الترع ، وانشاء المصانع كل ذلك مما يجب على الراعى تسهيله للرعية وهو أمانة فى عنقه .

اما العـــــدل فى الاحكام فيرجع الى تحرى الحق بوسائله ، والبعد عن الهوى والشهوة ، وقد أرشـدت الآيات الى أن سبيل الامانة والعدل انما هو اطاعة الله المشرع ، والرسول المبين ، وأولى الامر ، القائمين على حدود الله ، الذين هم من الامة ، يحسون احساسها ، ويهتمون بخيرها وسعادتها « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » .

ثم تلفت الآيات أنظار المؤمنين الى طائفة تنبت فيما بينهم ، وتظهر ايمانها بشخصية الامة ، وقلوبها تنكرها ، يزعمون أنهم يؤمنون بدين الامة وقانونها ، وهم فى الواقع ينطوون على ارادة التحـــاكم الى غير دينها الحق تبعا لشـــياطينهم ، وسيرا مع أهوائهم : « واذا قيل لهم تعـــالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

وهذه نابتة السوء ، وجرثومة الشر ، يختبر الله بها كل أمة ، فاحذروهم واحذروا طريقتهم التى تفسد عليكم أمركم : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » .

الا وان هؤلاء لا يقام لهم وزن عند الله ، ولا تحفظ لهم كرامة الا اذا تابوا وطهروا أنفسهم من رجس النفاق ، وتعاونوا معكم على البر والتقوى ، وخضعوا لاحكام الله، واتخذوها حكما فيما ينشأ بينهم من خلاف أو يعرض لهم من حاجة « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيها شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

ثم تلتفت الى أولئك المنحرفين وترشدهم الى ما فيه خيرهم من الامتثال لما يلقى عليهم من أحكام الايمان ، والانتفاع بثمراتها الطيبة : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . واذن لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » ، ثم تختتم الآيات هذا التشريع الداخلى الذى تحدثت فيه من أول السورة ، تختمه بوعد كريم لمن يطيع الله والرسول فيه، وتعدهم برفع مكانتهم الى مستوى الذين أنعم الله عليهم من عباده الاخيار « النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا » .

الاستعداد للامن الخارجى بعد الداخل

ثم تأخذ الآيات فى الارشـــــاد الى ما يتوقف عليه استقرار الامة من جهة خارجيتها ، فتأمر بأخذ العـدة والاستعداد الدائم لمكافحة العدو الطارىء عليها ، المغتصب

لها ، وتأمر بتطهير الأمة من عناصر الفساد والتخذيل التى تنبت منها وفيها ، وتربط حبالها بحبال أعدائها ، وتعمل فى سرها على تمكين العدو من بلادها .

ثم تعرض الآيات فى سبح طويل للتعامل فى سبيل الله وفى سـبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وترشد الى ما يتوقف عليه النصر ، معلية فى ذلك كله شأن الذين يقـاتلون فى سبيل الله ، الذين يبيعون الحيـاة الدنيا بالآخرة ، ويضحون بانفسهم وأموالهم فى اعلاء كلمـة الحق ، ورد كيد الغاصبين المبطلين . « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات او انفروا جميعـا وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

الفصل الثالث :

ســـورة الأنعام وسُــورة الأعراف

سـورة الأنعـام

الربع السادس :

تعامي المعاندين عن الحجج

قال تعالى : « ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

* هذا هو الربع السادس من سورة الانعام ، وسورة الانعام ، هي سورة الحجاج العقلي بين الحق والباطل ، وقد سلكت في حجاجها طريق الحكاية والتلقين ، تحكى بكلمة « قالوا » أو نحوها شبهة المبطلين ، وتلقن بكلمة « قل » ونحوها الحق وحجته . ومن شأن المبطلين في كل زمان ومكان ، أن يتعاموا عن حجة الحق الواضحة ، ويلتمسوا — تبريرا لعنادهم واعراضهم — حجة ليؤمنوا بها ، ويقسموا أنهم ان جاءتهم حجة ظاهرة ليؤمنن بها . والواقع أن كفر المعاندين لم يكن ناشئا عن عدم الحجة ، وانما هم بذلك لا تنفعهم حجة ، ولا يؤمنون ببرهان ،

★ الآيات من ١١١ الى نهاية الآية ١٢٦ من سورة الانعام

وانه مهما سيق اليهم من حجج ، وهيىء لهم من دلائل فانهم لا يؤمنون الا اذا سلكوا سنة الله فى ايمان من يؤمن ، فطهروا قلوبهم من الحقد والحسد ، وأقبلوا على النظر البرىء فيما يدعون اليه « ولكن أكثرهم يجهلون » يتمكن الجهل والسفه من قلوبهم فيمنعهم أن يسلكوا طريق الهداية والايمان .

وان واجب أهل الحق بالنسبة اليهم أن يعرفوا أن عداوتهم للحق ناشئة من نفوسهم وليست ناشئة من عدم الحجج المقنعة ، فلا يهتموا بشأنهم . ولا يكترثوا بما يقترحون من حجج وآيات : « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » .

واجب الدعاة

وليعلم اهل الحق ان سنة الله جرت مع كل نبى وكل داع ، أن ينبت لهم أعداء يقفون أمام دعوتهم ويعملون جهدهم فى صرف الناس عنها ، وما على هؤلاء الدعاة الا أن يصبروا ويصابروا ، ويعصموا أنفسهم وأتباعهم من الاغترار بزخرف قولهم وفاسد وحيهم حتى يأتيهم نصر الله ، وتكون العاقبة للصابرين « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن » . ولقد كان فى قدرة الله ان يسلبهم قوة المعارضة ، ولكن لم يشأ ذلك تحقيقا لحكمة الابتداء ، وتصحيحا لقانون المحاسبة والجزاء « ولو شاء ربك ما فعلوه » .

واذن فيجب على دعاة الحق أن يتركوهم وان يعتصموا بالحق الذى معهم وتشهد بصحته فطرهم وضمائرهم ، كما يشهد بصحته التاريخ الحق لاخوانهم السابقين :

« افغير الله ابتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » .

فليعتصموا بحقهم ، وليثقوا بسنة الله معهم فى النصر والتأييد ، وبسنته مع أعدائهم فى الهزيمة والخذلان « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » وليحذروا الاستماع اليهم ، والتأثر بما ينفثون من سموم « وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله » ، « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ، وان أطعتموهم — فى عقيدة أو عمل — انكم لمشركون » .

اعداء الحق

وقد جرت سنة الله أيضا أن يجعل أعداء الحق فى كل أمة « أكابر مجرميها » أرباب الرئاسة والجاه والسلطان ، وأنهم هم الذين يضطربون لصوت الحق ، ويخافون سطوته ، وهم لذلك يعملون جهدهم فى وضع العقبات ، وفى الكيد لارباب الحق ، ولكنهم فى سنة الله لا يمكرون الا بأنفسهم وسيرون حتما ذلتهم وعزة الضعفاء حينما تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم القضاء على أيدى هؤلاء الضعفاء : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون » .

بهذا مضت سنة الله فى الاولين ، وتمضى به فى الآخرين ، وبه يسجل الله الصغار والذل على المبطلين ، الذين يكيدون للحق ويصرفون الناس عن الحق « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد

بما كانوا يمكرون » . أما من يطهر قلبه من دواعى الاجرام ونوازع النفس الخبيثة ، ويستقبل الحق بقلب نقى فانه يدخل فى رحمة الله ، وينعم بفضله وهدايته :

« وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » .

الربع السابع :

مهتد وضال

* يواصل هذا الربع الحديث عما يكون من شأن المهتدين الذين طهرت قلوبهم من الموروثات الفاسدة ، ونظروا فى أدلة الحق ، فانشرحت به صدورهم وسلكوا طريق الله المستقيم ، ومن شأن الضالين ، الذين تحجرت قلوبهم فلم ينفذ اليها شعاع الحق ، وظلوا فى كفرهم يعمهون ، فيذكر بالنسبة للمهتدين : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

ويصور بالنسبة للضالين بعض مواقف الحشر والحساب ، التى يتجلى فيها أن سبب ضلالتهم هو فتنة بعضهم ببعض ، واستجابة الاتباع لاغراء المتبوعين . والتى تقطع عليهم فيها اعذارهم ، ويذكرون برسل الله وآياته ، فيشهدون على انفسهم بالكفر ، ويعترفون أن الحياة الدنيا هى التى غرتهم ، وصرفتهم عن الايمان بالرسل ، وعن النظر فى الآيات : « يا معشر الجن قد

★ الآيات ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الانعام

استكثرتم من الانس ، وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض » ، « يا معشر الجن والانس . ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا » .

شبيه الشيء منجذب اليه

وعندئذ يصدر على الجميع ، ضالين ومضلين : « النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » . وفيما بين هذا التصوير الآخذ بالنفوس والذى يعبر تعبيرا قويا عن عن علاقة الاتباع بالمتبوعين فى الدنيا والذى يوضح أن ضلال الفريقين انما جاءهم من قبل أنفسهم ، سيرا وراء الهوى والشهوة ، لا من قبل الله بحكم قاهر لا مفر منه .

فيما بين هذا التصوير ، تقرر الآيات سنتين من سنن الله فى خلقه ، تختص احداهما بالضلال والاضلال ، وهى ان النفوس المتشابهة فى عوامل الاعراض عن الحق يميل بعضها بحكم المشاكلة الى بعض ، تلتقى رغباتهم وأهواؤهم ، فتلتقى عقائدهم وخططهم ، فيتعاونون ، ويتناصرون ، ويتبع بعضهم بعضا « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .

الجزاء بعد الانذار

وتختص السنة الاخرى بشان الله فى الحساب والجزاء ، وهى أنه ليس من شانه سبحانه أن يعذب الامم بما يشيع فيها من مظالم ، وينتهك فيها من حق ، قبل أن ينذرهم ويرشدهم ، ويبعث فيهم من يدعوهم الى

صراطه المستقيم، لئلا تكون لهم حجة ، ويقولوا « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، « ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » .

سر التكليف والاختبار

ثم تبين الآيات أن هذه السنن التى يعامل الله بها عباده — فى الضلال والهدى ، والانذار والتبشير ، والحساب والجزاء — لم تكن ليسد بها حاجة له سبحانه ، فهو الرب الغنى الذى يحتاج اليه كل من سواه، وانما هى من رحمته بعباده ليظهر فيهم المحسن من المسىء ، ويمتاز بها الخبيث من الطيب ، ويحظى كل عامل بنتيجة عمله ، ولو شاء سبحانه لاذهب العصاة المارقين ، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، يطيعون ولا يعصون ، ولكن قضت حكمته بتنظيم الكون على هذه السنن ، تحقيقا لقاعدة التكليف والاختبار ، واظهارا لفضل العقل الذى فضل به الانسان على غيره من سائر المخلوقات .

اذا فسدت العقيدة ساء السلوك

ولما كانت العقائد الفاسدة يتبعها دائما أحكام فاسدة وتصرفات منحرفة ، أخذت الآيات تبكت الضالين فى عقائدهم على بعض تصرفاتهم التى كانت أثرا من آثار كفرهم بالله ، واعراضهم عن شرائعه وأحكامه ، فذكرت تصرفهم بالتحليل والتحريم فى الحرث والانعام ، تصرفا لم يأذن به الله ، ولم يكن فى طبائع الاشياء ما يسمح به

و يبرره : جعلوا منها نصيبا لشركائهم ، ونصيبا لله ؛ وبعد هذا يأخذون ممـــا جعلوه لله ويضيفونه لمـا جعلوه للشركاء ، وخصصوا بعض الانعـــام والحرث لمن يشاءون ، وحرموها على من يشاءون ، حرموا ظهور بعض الانعام ومنعوا أن تركب أو يحمل عليها ، وأكلوا ما ذبحوه باسم الاصنام والشركاء ، وحرموا ما ذكر اسم الله عليه ، وهكذا حتى امتد سوء تصرفهم الى أولادهم فتقربوا بقتلهم الى المعبودات .

وعبرتنا فى ذلك : ان التشريعات والتصرفات التي لا تؤسس على الايمان بالله وشرائعه لابد أن تكون عاقبة اهلها الخسران والدمار ، فليعتبر هؤلاء الذين يجعلون لغير الله نصيبا فيما خلق والذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل ابتغاء شهوة أو تقليد ، والذين يعملون جهدهم فى افساد نطف النسل الذى به يعمر الكون ، وتظهر به أسرار الله فى خلقه ، وليقرءوا جميعا قوله تعالى :

« وقد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

الربع الثامن :

نعم الله دلائل وحدانيته

* وفى هذا الربع تعود الآيات فتذكر أدلة التوحيد

★ الآيات ١٤١ الى نهاية الآية ١٥٠ من سورة الانعام

الماثلة فى نعم الله التى يتقلب فيها عباده ، والتى يسدون بها حاجياتهم ، ويمتعون بلدائدها أنفسهم ، يدبر من ذلك الزروع ، ويذكر الانعـــام ، ويلفتهم الى ما فى الزروع والاشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها فى مهامهم ، وبثمارها فى طعـــامهم ، والى ما فى الانعام من ثروة حيوانية ، لهم فيها دفء ومنافع ومنها يأكلون : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » « ومن الانعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » . كلوا من الانعام، كما تأكلون من الزروع والثمـــار فالكل مما أنعم الله به عليكم ، وأحله لكم ، وان التفريق بين ما أحل الله بتحليل البعض وتحريم البعض ، خروج عن قضية التسوية بين المتماثلات فى الطبيعة والحكم ، وافتراء على الله بالتحليل والتحـــريم ولا يملك التحليل والتحريم سواه « قل الذكرين حـــرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا » .

أربعة أطعمة محرمة

لم يحرم شيئا من هذا ، وما كنتم شهداء اذ حرم . وانما هو افتراء وتضليل « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » . ان الله لم يحرم شيئا من الزروع ، ولا من الانعام ، وانما الذى حرم ان يطعـم هو الميتة ، والدم المسـفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذى أهل به لغير الله . وقد حصر الله ما حرم من طعام فى هذه الاصناف الاربعـــة ، وقد جاء ذلك الحصر فى سورتنا بقوله : « قل لا أجد فيما أوحى الى

محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به » وجاء ذلك الحصر مرة أخرى فى سورة النحل بصيغة : « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » . وسورة الانعام ، وسورة النحل مكيتان ، ثم جاء ذلك الحصر مرة ثالثة فى سورة البقرة على نحو ما جاء فى سورة النحل « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » ثم جاء مرة رابعة فى سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » وكان ذلك بعد قوله : أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم » . وسورة البقرة ، وسورة المائدة مدنيتان . والمائدة بعد ذلك من أواخر القرآن نزولا . ومن هنا يتبين ان حصر المحرمات من الطعام فى هذه الاربعة ، هو ظاهر القرآن الكريم .

شبهتان مردودتان

وتعرض الآيات بعد هذا الى شبهتين ، كان يتذرع بهما القوم فى أصل التحريم ، وفى عدد المحرمات ، فكانوا يقولون : لو كان دين الله حصر التحريم فى هذه الاربعة فكيف حرم على بنى اسرائيل كل حيوان ذى ظفر ؟ . وحرم عليهم بعض شحوم البقر والغنم ؟ . ويجيب الله عن هذه الشبهة بأن تحريم ذلك على بنى اسرائيل لم يكن شرعا وانما كان ابتلاء وعقوبة « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل » ، « ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » . وكانوا يقولون فى أصل التحريم والشرك ،

وما ورثوا عن الآباء من عقائد وشرائع فاسدة : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » يريدون أن الله رضيه وأمر به ؛ أو أنهم مجبورين عليه بقهره الذى لا يستطيعون التخلص منه ؛ وتلك شبهة لا تزال عالقة بالنفوس يعتذر بها المفسدون . ويجادل بها المبطلون ؛ فأشركوا وحرموا ، واعتذروا بالمشيئة كما يعتذرون ؛ فعاقبهم الله على شركهم ، ولم يكترث باعتذارهم : فلو كان حقا ما قالوا لما عاقبهم « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » ثم طالبهم بما يثبت رضا الله بالشرك والتحريم أو بما يثبت قهرهم على ما هم عليه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون » . واذ لا علم عندكم فلا تتبعوا أهواءكم واتبعوا ما أنزل الله اليكم : « قل فلله الحجة البالغة » .

الانسان مختار غير مقهور

كلفكم ووعد وأوعد ، وترككم كما خلقكم ؛ مختارين غير مقهورين ولا مجبورين ، ليكون للمحسن احسانه ، وللمسيء أساءته ، ولو شاء لقهركم على الطاعة فلا تقدرون على العصيان ، أو قهركم على العصيان فلا تقدرون على الطاعة ، وعندئذ لا تكونون من النوع الذى أعده للخير والشر ، وهداه النجدين .

ثم يستنهض همتهم فى استحضار من يشهد لهم بما يقولون ، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه من السير فى طريق شبههم الضالة :

« ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

الربع التاسع :

(*) عرضت سورة الانعام لكثير من ادلة التوحيد والرسالة والبعث ، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها خصوم الدعوة عليها وعلى الدعاة ، وبينت فى سبيل تسلية الرسول وصحبه جملة من سنن الله فى الاضلال والهداية ، وفى معارضة الباطل للحق حتى أوفت فى ذلك كله على الغاية ، وأخيرا ختمت بهذا الربع : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا » ... الآيات . فركزت الدعوة فى أمهات الفضائل ، وأسس الخير للفرد والجماعة ، ففى جانب العقائد :

« ألا تشركوا به شيئا » . فله وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ، ومنه وحده الخوف والرجاء ، وله وحده التحليل والتحريم .

وفى جانب العمل :

« وبالوالدين احسانا » . فمنهما نشأ الانسان وفى احضانهما تربى ، والاحسان اليهما اعتراف بالنعمة وتقرير للجميل : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » . فالولد ثمرة الحياة ، وحلقة فى سلسلة النوع الانسانى ، وفى حكم قتلهم العمل على منعهم حيث لا ضرورة تدعو اليه ، واهمال تربيتهم ، أو تنشئتهم على بغض بلادهم ودينهم .

★ الآيات من ١٥١ الى آخر سورة الانعام

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » . فالاعتداء عليها هدم لعمارة بناها الله ، واعتداء على خلافة أرادها الله . نعم . أهدرت عصمة النفس البشرية اذا اعتدت على أخت لها بريئة فقتلتها . أو على نظام الله العام فحاربته وأفسدته ، أو على جماعة المسلمين فناصبتها العداء .

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » . فالاموال صنو النفس ، وعنصر الحياة . والاعتداء عليها اعتداء على الحياة ، وقد خص بالذكر « الاكل » عن طريق استضعاف المالك كاليتيم ، وعن طريق الاختلاس فى المعاملات التى لابد للناس منها ، وهو طريق البيع والشراء : « ويل للمطففين .. » .

وفى جانب القول :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا » . العدل ، والوفاء بالعهد قطبا النظام ، فلا عمران مع الظلم ، ولا نظام مع المحسوبية ، ولا ثقة مع نقض العهود . واهمال شرع الله نقض لعهد الايمان . والاخلال بالالتزامات نقض لعهد الانسان . وتبديل حكم الله نقض لعهد الله ولا حياة لامة عرفت بنقض العهود .

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . جمع الكلمة وارتباط القلوب حول تركيز شرع الله اعتصام بحبل الله ، وسبيل للخير والفلاح . والتفرق غول الامم ، ومورد التهلكة .

وصايا الهية

تلك وصايا الله ، بعث بها كل رسول ، وانزل بها كل كتاب . فهى شرعه الدائم ، وصراطه المستقيم ، جاء بها كتاب موسى ، وجاءه بها القرآن الكريم ، ليؤكد اللاحق السابق : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى احسن » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » . والاعراض عنه تكذيب بآيات الله وسبيل لغضب الله ، والتفرق فيه تضييع لامانة الله « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

ثم تختم السورة بأمرين عظيمين ، يرجع أحدهما الى تقرير الدعوة فى نفسه صلى الله عليه وسلم تقريرا يحس به وجدانه ، ويتجلى به ظاهره ، ويمتلىء قلبه برهانه المادى والتاريخى : « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة ابراهيم » ، «قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » ، « قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء » .

وتقرير الدعوة على هذا الوجه له من الاثر فى قوة الداعى ، وفى تبديد شبه المعارضين ما يركز للحق سلطانه ، ويرمى بجبهة المعارضة الى مكان سحيق .

أما الخاتمة الثانية والاخيرة فهى ارشاد الانسان الى مكانته التى أعدها الله له فى هذه الحياة ، تلك المكانة التى تمثلها خلافته فى الارض ، وان الله جعل عمارة الكون تحت يده وبعمله ، تتعاقب عليه أجياله ، ويقوم اللاحق فى ذلك مقام السابق ، وان الله سبحانه قد

فاوت فى المواهب ليظهر من يحسن فى الخلافة فيكون له من الله مغفرة ورحمة ، ومن يسىء فيكون له من الله شديد العقاب : « وهو الذى جعلكم خلائف الارض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » .

سـورة الأعراف

الربع الاول :

مهمة التنزيل المكى

(*) سورة الاعراف اول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم ، وأول سورة عرضت للتفصيل فى قصص الانبياء، وهى أطول سورة فى المكى ومهمتها هى مهمة المكى : تقرير التوحيد . ربوبية ، والوهية ، وتشريعا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحى والرسالة . وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لاجلها جميع الرسالات الالهية.

واجب الداعى وحقه

نوهت بشأن الكتاب ، وأرشدت الى الغاية التى لاجلها انزل ، والى ما يجب على الرسول بصفته الداعى ان يطرده عن قلبه حتى يقوى فى الدعوة ويقوم بالمهمة التى

★ أنظر أول الاعراف الى نهاية الآية ٣٠

ألقيت على كاهله : « كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » : فعلى دعاة الخير أن يتسلحوا بالهدوء والاطمئنان . وعلى الناس أن يوفروا عليهم راحة الضمير ، والا يضعوا أمامهم العقبات التى تحرج الصدور ، وتقبض النفوس ، وقد أجملت السورة دعوتها الى هذه الاصول فى آية واحــدة ، تحمل الامر بناحية الايجاب ، وتحمـــل النهى من ناحية السلب ؛ فطلبت اتباع ما أنزل من عقائد وأخلاق وأعمال ، ونهت عن اتخاذ أولياء من دون الله ، يرجع اليهم فى التحليل والتحريم ، أو يقصدون بالعبادة والتقديس ، أو يعتمد عليهم فى الشفاعة والمغفرة : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » .

ثم سلكت سبيل الانذار : فأنذرت بما أصاب الامم السابقة حينما كذبت رسلها ، وعتت عن أمر ربها : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » . وخوفت بما أعد للمكذبين يوم أن يسألوا عما أنزل اليهم، ويوم أن يسأل عنهم المرسلون ، يوم الوزن الحق ، يوم يثقل الميزان او يخف : « فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين » ، « والوزن يومئذ الحق » ثم سلكت سبيل التذكير بالنعم ، فلفتت الانظار الى نعمة تمكين الناس فى الارض ، واتخاذهم اياها وطنا مزودا بضروب المنافع الشتى ، يستقلون فيه بالحكم ، والانتفاع بموارده الظاهرة والباطنة لا يشاركهم فيه أحد ، ولا يخرجهم منها انسان « ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيهــا معايش » .

ولفتت الانظار الى نعمة خلقهم من أب واحد ، يجمعهم

به رحم واحد ، وبه كانوا خلفاء فى الارض وعمارة الكون، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه . وهنا ذكرت السورة خلق آدم وقصته مع الملائكة ، من أمرهم بالسجود له ، اظهارا لفضله ، وتنويها بما يكون له من شأن ، بعد ان قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

تحذير من ابليس وجنده

ثم ذكرت موقف ابليس من آدم وكيف أبى واستكبر ، وتعالى وتعاظم وقال « انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . ومن هنا ظهر للانسان عدوه المبين ، الذى ابتلاه الله به فى هذه الحياة ، والذى يجب عليه ـ ليسلم من شره ويسعد ، ويحصل على رضا مولاه ، ويحقق حكمة الله فى خلقه ـ أن يتخذه عدوا ، يتحسس نواياه ، ويتعرف وسوسته ويكافحه بكل ما أوتى من قوة . يعرف أنه قد نصب له الشباك وقعد له بالمرصاد ، ورسم خطته فى اغوائه والكيد له : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

بصرنا الله بهذه العداوة ، وحذرنا منها « اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » . ثم يذكرنا بما كان من اثر عداوته لآدم أبى البشر : كان آدم وزوجه فى رغد من العيش فأبتلاهما الله بتكليف خاص ، فوسوس لهما الشيطان ليظهر ضعفهما ، فينحرفا عن التكليف ، فيقعا فى شر المخالفة ، فيكون لهما من الله جزاء المخالفين « فوسوس لهما

الشيطان » ، « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور » ، ووقعا فى المخالفة ، ثم تنبها الى كيد الشيطان ، وقالا : « ربنا ظلمنا أنفسنا وأن لم تغفر وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وهكذا يجب أن يربط أولاد آدم نسبهم بآدم ، فيعرفوا ـ كما عرف ـ كيد الشيطان ، ويطهروا أنفسهم ـ كما طهر ـ من وسوسته واغوائه ، فقد خلقهم الله فى الارض ، وابتلاهم بالشهوات ، وتعارض الرغبات ، وقام الشيطان بينهم ، يضل ، ويكيد ، ويفرق ، ويغرى ، ونظم حياته على قوى الافساد ، فليحذروه ، وليتقوا شره ، وليعتصموا بدعوة الله الواقية ، لعلهم يرحمون « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ».

وتخلص الآيات بعد ذلك الى نداءات أربعة تتجه بها الى الناس بوصف البنوة لآدم تذكرهم بنعم الله عليهم ، وتحذرهم فتنة الشيطان ، وترسم لهم طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة .

الربع الثانى :

الانسان بين الخير والشر

✻ قص الله علينا نبأ آدم مع ابليس ، وكان مغزاه ان الانسان له جانب خير يتلقى به أمر ربه ويمتثله وينفذه ، فيصل الى سعادته والى رضاه ، وله جانب شر ، به

★ الآيات ٣١ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة الاعراف

يستجيب لوسوسة الشيطان واغوائه ، فيبعد بذلك عن سعادته ، ويصيبه غضب الله ، وأولاد آدم من آدم ، تكوينهم من تكوينه واستعدادهم من استعداده فلهم كأبيهم جانب خير يقودهم الى اتباع أوامر الله ، وجانب شر يوقعهم في المخالفة والعصيان ، وابليس الذى نشأ على عدواتهم يغريهم ويوسوس لهم كما أغرى أباهم ووسوس له ، ويحاول أن يكشف لهم من عورات وسوءات ، كما كشف لابيهم من عورات وسوءات .

لهذا وجه الله الى أبناء آدم ، بعد أن بين لهم عداوة ابليس لابيهم ، أربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم « يا بنى آدم » يرشدهم فيها الى نعمته عليهم ويحذرهم بها من عدوهم ، ويرشدهم الى أن هدايته لهم والتمسك بها هى وحدها سبيل عصمتهم من الوقوع فى كيده ، ويذكرهم بأن الحرمان من النعيم ، الذى أصاب والديهم ، انما كان بنسيانهما نعمة الله ، وباستجابتهما للشيطان ، واغفالهما هداية الله .

امتن عليهم بأن هيأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذى به يستـــرون عورتهم ويريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل ، ولفت أنظارهم الى ان تقوى الله فى الانتفاع بنعمة اللباس على الذى رسم الله هو اســاس الرضا ، وأساس الشكر « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتـكم وريشا ، ولباس التقـوى ذلك خير » .

وفى تحذيرهم من فتنة الشيطان التى فتن بها والديهم من قبل ، ووقعا بها فى المخالفة والعصيان : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » . وفى

سبيل هذا يرشدهم الى أن عدم الايمان بالله والاعراض عن هديه هو الطريق الوحيد الذى به يتسلط الشيطان عليهم ، وينفذ منه الى قلوبهم : « انا جعلنا الشياطين اوليــاء للذين لا يؤمنون » ، فيأخـــذون بهم الى طريق الشر ، ويخيلون لهم ان ما يفعلون من شر وفاحشة انما هو باذن الله وأمره « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . ثم يجيء النداء الثالث ، فيكشف عن المعنى الانسانى فى اللباس ، وانه من الزينة التى تحفظ على الانسان مكانته ، ويأمرهم باتخاذها فى المساجد وما يماثلهـــا من المجتمعات ، ويرشدهم الى الاعتدال فيها ويضم اليهـا الاكل والشرب ، ويقـول : « ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » .

وكما يحذر الاسراف ، يحذر الحرمان ، وينكر على الاشحاء أو المتنطعين حرمان أنفسهم من الزينة والطيبات من الرزق ، ويرشدهم الى ان الجدير بالتحريم وبتطهير النفس منه « الفواحش» التى تأباها الانسانية ،و«البغى» فى الارض . و « الشرك » الذى لا تقوم له حجـــة ، ولا يوحى بفضيلة ، والقـول على الله بغير علم ، وهو أصل الضلال ، والقضاء على شرائع الله واحـكامه . وترشدهم الى أن لكل أمة أجلا ، تحـــاسب بعده على ما اقترفت من المظالم والمآثم ، وينزل بها الجزاء الذى تستحق ، وانها لا تحظى بالنعيم بعد هذا الاجل الا اذا آمنت بالله وهداه ، واتقت حـــرماته ، وأصـــلحت ما أفسدت أو أفسد الناس : « يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

حرمان ابدى

ثم تصور لنا الآيات بعد مشهدا من المشاهد الواقعية يوم الجزاء للمكذبين حتى يتضح الحق ، ويشهدون على أنفسهم بالكفر والتكذيب ، وأن أربابهم ـ الذين كانوا يدعون من دون الله ، وشفعاءهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى النجاة من عذاب الله ـ قد ضلوا عنهم وتبرءوا منهم ، وفى هذا المشهد يتخاصم التابعون والمتبوعون ، ويلقى كل منهم بالتبعة على صاحبه ، ويسجل الله على الجميع تابعين ومتبوعين ضـــالين ومضلين الحرمان الابدى ، ويوصد فى وجوههم أبواب الرحمة ، ويصف تقلبهم فى طبقات الجحيم المستعرة ، « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

« لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » .

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين » .

نعيم دائم

وبجانب مشهد الظالمين المكذبين ، ترسم الآيات مشهد المصدقين المؤمنين : صفاء النفوس من الغل والحقد ، وحمدا على هداية الله ، وشكرا على نعمته : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهـــار » ،

« وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله » ، « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

الربع الثالث :

محادثة بين فرق ثلاث

* يتحدث هذا الربع عن مشهد آخر ، تبدو فيه الوان جديدة من صور التحية والتكريم للمؤمنين ، ومن صور التبكيت والحسرة للمكذبين، وتجرى فى هذا المشهد محادثة بين فرق ثلاث : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، أهل الهدى والايمان . وفرقة الكافرين ، أصحاب النار، أهل الضلال والبهتان . وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن الا فى هذه السورة ، وفى هذا الربع وباسمها سميت السورة ، وهى الفرقة التى سميت بأصحاب الاعراف « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » . « وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . « ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم » . « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة » .

مشهد أخروى ، سيشهده العالم يوم البعث والجزاء دون تصوير ولا تخييل تبين تلك الآيات ما سيكون فيه من شماتة أهل الحق ، أصحاب الجنة ، بالمبطلين أصحاب النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فلا يستطيعون الا أن يقولوا

★ الآيات ٤٧ الى نهاية الآية ٦٤ من سورة الاعراف

« نعم » فينطلق صوت علوى ، يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان ، ومشيرا الى أن ظلمهم للحق ولانفسهم هو الذى حملهم على الصد عن سبيل الله وعلى السلوك المنحرف ، وعلى الكفر بما يرون الآن . وتبين ان بين الجنة والنار حجابا ، وأن على الاعراف رجالا ، يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم ، فينادون أهل الجنة بجميل التحية والتكريم «ان سلام عليكم» وينادون الآخرين بما يضاعف حسرتهم . ويبين لهم ما كانوا فيه من من غرور : « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. اهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ؟ . ثم يلتفتون الى أهل الايمان ويقولون : « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

ويستفر أهل الكفر والضلال فى الجحيم ، وتشوى النار وجوههم ، وتجفف أكبادهم ، فيفزعون الى نداء أهل الجنة : « ان افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » فيقولون لهم : « ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا » . وهنا يقطع الله أعذارهم بأنهم كانوا فى حل بوم ان جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، فماذا يقولون اليوم وقد تركوه من قبل ؟ « وقد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تلك شماتة المؤمنين بالكافرين ، وتحسر الكافرين على حرمانهم وسوء مصيرهم وبشرى أصحاب الاعراف وتحيتهم للمؤمنين ، وتبكيتهم للمنكرين الضالين .

الحجاب والاعراف

وقد تكلم العلماء كثيرا فى الحجاب الذى بين الجنة والنار ، كما تكلموا فى معنى الاعراف وفى رجاله . والذى يجب علينا أن نؤمن به ان هنالك حجابا بين الجنة والنار ، قد يكون ماديا ، وقد يكون معنويا . والذى يعلم حقيقته هو الله وحده . والقصد ان هناك ما يمنع وصول اهل الجنة الى النار ، أو وصول حرارة النار اليهم ، ويمنع وصول أهل النار الى الجنة ، أو وصول نعيمها اليهم . وأن هذا الحجاب لا يمنع من وصول الاصوات عن طريق المناداة ، ولعل ما نشاهده ، وما نحن فيه الآن من سماع الاصوات دون رؤية ومشاهدة ، أو الرؤية دون اتصال أو قرب ، أوضح شاهد على أن ما تصوره الآيات حقيقة تقع وتأخذ حظها من الوجود ، وليست تخييلا ولا تمثيلا .

أما الاعراف ، فأظهر ما يراه فى معناها ، الاماكن العالية الممتازة ، يكون عليها رجال لهم من المنزلة الرفيعة عند الله ما جعلوا به مشرفين على هؤلاء وهؤلاء ، وهم عدول الامم ، والشهداء على الناس ، وقد جاء التصريح بهم فى مثل قوله تعالى : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيدا وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ، «وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » .

عظات

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الانظار الى بعض الادلة الكونية وتوجه النفوس الى دعوة الله تضرعا وخيفة ،

وتحذر الافساد فى الارض ، وتذكر مثلا للنفوس الطيبة التى تنفعل بهذه الادلة فتؤمن وتصدق وترد الامر كله الى مصدره ، خالق السموات والارض ، والذى له الخلق والامر . ومثلا آخر ــ يقــابله ــ للقلوب الملتوية التى تصرفها الشهوة عن الحق ، ويتحكم فيها الكبر ، فيمنعها من قبوله : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا » . ثم تعود الآيات فتذكر تفصيلا لما اجملته السورة فى أولها من أحوال الامم المكذبة : فتذكر جملة من الامم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ، وتبدأ بالرسول الاول الاب الثانى للبشر « نوح عليه السلام » ، فتبين أن دعوته كانت هى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام : « اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ، وأن الذين ناصبوه العداء وأخذ يسالمهم ويناصحهم ، هم المستكبرون من قومه . كما كان شأن المكذبين لمحمد عليه السلام . وان نوحا لما صبر وصابر واستمر قومه على العناد والمكابرة كانت العاقبة للجميع : « فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » . وهكذا سنتنا مع الآخرين المكذبين .

الفصل الرابع :

سورة يونس
وسورة هود

سورة يونس

الربع الثالث :

* عنيت سورة يونس بما عنيت به السور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة والبعث ، ودفعت جملة من الشبه التى كان القوم يثيرونها حول رسالة الرسول ؛ وحول القرآن . ووصفت في كل ذلك ما شاءت أن تصف وفى هذا السياق ضربت للقوم مثل الحياة الدنيا التى خدعتهم زخارفها ، وحالت بينهم وبين استجابة الدعوة، وهى دعوة الله التى يدعو بها الى دار السلام ، والامن من الشقاء والحيرة والارتباك ، ثم تصف حالة المحسنين الذين استمعوا للدعوة وما يحصلون عليه من الـكرامة الخالدة ، والمكانة الرفيعـــة التى لا يلحقهم فيها تكدر ولا ذلة : « أولئك أصحاب الجنة هم فيهـــا خالدون » وتصف بازائها حالة المسيئين الذين كسبوا السيئات ، وما يصيبهم فى دار الخزى من الذلة والمهانة : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم تصف مشهدا من المواقف التى يصير اليها المكذبون

★ الآيات من ٢٥ الى آخر الآية ٥٢ من سورة يونس

يوم الحشر الذى ينكرونه ويهزءون بذكراه ، ذلكم المشهد الذى يفـــرق فيه بينهم وبين شركائهم فتذهب آمالهم فيهم ، وتنقطـــع ما بينهم من صلات . ويتبرأ منهم الشركاء : « ما كنتم ايانا تعبدون » ، « ان كنـــا عن عبادتكم لغافلين » ، وفى هذا الموقف ينكشف الغطاء . وتزول الاهواء ، وترى كل نفس ما قدمت من عمل ؛ ليس لها شفيع من دونه : « وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تحكيم الفطرة

ثم تنتقل الآيات الى تحكيم الفطرة البشرية فيما تشهد به من توحيـــد الربوبية فى الخلق والتدبير والرزق ، والاحياء والاماتة وتسجل عليهم الجواب المتين الـذى لا تعرف الفطرة سواه ، توحيد الالوهية القاضى بعبادة الله وحده : « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال » .

ثم تنتقل بهم الى تحكيم الفطرة ايضا فيما وراء الخلق المادى ، من أنواع الهداية المودعة فى نفوس البشرية ، وهى هداية العقل ، وهداية الوجدان : « هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ، أم من لا يهدى الا أن يهدى » .

حول القرآن

ثم تنتقل الآيات بعد الحجاج العقلى والوجدانى الى موقف القوم بالنسبة للقرآن ، وقد كانوا ينكرون أنه من

عند الله ، فبينت لهم أولا ان القرآن بطبيعة ما اشتمل عليه ، من تقرير الحقائق ، واقامة الادلة الكونية وشرح النفسيات الانسانية . والسنن الاجتماعية ، والمغيبات الماضية والمستقبلة ، والاحكام التى ترشد الى السعادة ، يأبى بكل ذلك أن يكون من عند محمد ، أو غيره ممن لا سبيل الى معرفتهم بما احتوى عليه القرآن ، فهو حق من عند الله لا ريب فيه ، وهو تصديق لما بين يديه من كتب الاولين : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » .

ثم أخذت بهم الآيات ثانيا ، على افتراض انه افتراء من عند محمد ، الى التحدى ، ودعتهم الى الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله ، فهم ومحمد فى البيئة واللغة سواء : عربى وعرب ، وبليغ وبلغاء .

ثم تكشف لهم عن حقيقة أمرهم ، وهى انهم قوم مجترئون على ما لم يحيطوا بعلمه ، ولم تنفذ عقولهم الى أسراره وحكمه ، وسيتضح لهم عاقبة ظلمهم فى أنفسهم ، كما اتضحت لاخوانهم المكذبين من قبل : « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . ثم ترشد الآيات الى أن جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه الكتاب ، أو عدم ايمانهم به ، لم يكن ناشئا من خفاء الكتاب أو اضطرابه . وانما هو ناشىء عن صلفهم وتكبرهم عن النظر فى الحق ، وانه لا ذنب لاحد سوى أنفسهم فى تكذيبهم لتلك الحقيقة الواضحة : « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » ، « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » . فما عليك أيها الرسول سوى أن تدعوهم بحجتك وأن تنذرهم يوم الحشر ، يوم ينكشف لهم الغطاء ، وينزل بهم العذاب ، وقد تخلف عنهم كل ما أغراهم من زينة الدنيا وشهواتها

ولم ينتفعوا بشيء منها ، او كأنهم لم يلبثوا فيها الا ساعة من النهار ، وهنا تسجل الآيات عليهم الخسران الابدى بما فرطوا فى جنب الله : « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » ، « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون الا بما كنتم تكسبون » .

الربع الرابع :

انذار وامهال

* من سنة الله مع المكذبين أن ينذرهم ، ثم لا يأخذهم من قريب ، بل يمهلهم فترة يستطيعون فيها مراجعة انفسهم ، فاذا انقادوا وآمنوا ضمهم اليه ، وغفر لهم ما أسلفوا من عناد . ومن الناس من يطغيهم الامهال وينسيهم تلك السنة ، فيتخيلون انهم فى الانكار على حق ، ويندفعون الى السخرية والاستهزاء بما به ينذرون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » أحق ما تقول ؟! . وهكذا يأخذ بهم الصلف الى استعجال العذاب ، أو السخرية به !

أمام هذا الطغيان يأمر الله نبيه أن يقرر لهم ان العذاب حقيقة واقعة ، وأنه نازل بهم لا محالة ، وانهم غير قادرين على التخلص منه : « وما أنتم بمعجزين » . وتأكيدا لذلك فى نفوسهم تصور الآيات لهم ما تعتلج به حينما يطوقهم العذاب من محاولة الافتداء ، وشدة الندامة على مواقفهم السالفة التى أوقعتهم فيما هم فيه.

★ تقدمة الآيات من ٥٣ الى آخر الآية ٧٠ من سورة يونس

ثم توقظ ضمائرهم نحو ما استقر فى الفطرة البشرية من ان صاحب هذا الوعيد ، وصاحب هذه الدعوة ، هو الله الذى له ملك السموات والارض ، والذى له الاحياء والاماتة . والذى اليه المرجع والمآب : « هو يحيى ويميت واليه ترجعون » . ثم تأخذ الآيات فى بيان فضل الدعوة على الناس ، وانها موعظة زاجرة لهم عن القبائح ، وشفاء مطهر لقلوبهم من الاوهام والخرافات ، وارشاد موصل للحق والنافع ، ورحمة تقى الانسان العذاب والخسران . وهو استدلال على صحة الرسالة بنفس تعاليمها . ثم تؤكد لهم ان هذه المزايا خير مما يجمعون من زخارف الدنيا الفانية التى ليس وراءها الا الخسران المبين .

ثم تبكتهم فى أثر من آثار كفرهم ، وهو اغتصاب حق الله فى التحليل والتحريم ، وتسجل عليهم الافتراء به على الله « قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » . أيظنون ان الله يجاملهم ولا يجازيهم ؟ . « ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

ثم تقرر الآيات احاطة الله بكل ما يكون من شأن الانسان ، وبكل ما أودع فى كونه الذى خلقه « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » . وانه بهذا العلم المحيط يقرر الجزاء العادل ، فالمكذب له من جزاء التكذيب ما توعد به المكذبين ، والمؤمن له من جزاء الايمان ما وعد به المؤمنين : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » ، لهم فى الدنيا ما يضىء وجوههم ، ويركز سلطانهم من عزة وقوة

وجاه ، ولهم في الحياة الآخرة ما يضيء وجوههم من علو الدرجات وزيارة الفضل والعطاء .

خرافة الشركاء

وإذا كان هذا شأن الله مع المكذبين والمؤمنين ، وكان لا تبديل لكلماته ، فليطمئن دعاة الخير ولا يكن فى صدورهم حرج مما يذيع المكذبون وليثقوا بنصر الله الغالب على أمره ، الذى له ملك السـموات والارض ومن فيهن ، وليعلموا أن ما يعبـد هؤلاء المكذبون من دون الله ، ويسمونهم شركاء ، ليسوا فى واقع أمرهم شركاء ، وانما هم ضعفة عجزة ، لا يدفعون عن انفسهم شـيئا ، « والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » . وانما خيل لهم الهوى والشيطان انهم شركاء، فضلوا « وان هم الا يخرصون » . ان الله الذى جعلوا له هـؤلاء الشركاء من دونه هو الذى جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتغوا من فضله . وقد خرجوا بفساد تصورهم عن مقتضى الفطـر ، ومقتضى الآيات ، وراحوا يكفرون بالله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ، ويقولون فى شأنه ، ما ليس لهم به علم : « قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع فى الدنيا ، ثم الينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

الربع الخامس :

* تضمنت سـورة يونس كثيرا من أنواع الحجج العقليـة ، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها المعاندون حول التوحيد والبعث والرسالة وكانت تذكر فى الاثناء بما أصاب الامم السابقة حينما وقفت من رسلها موقف المكذبين لمحمد عليه السلام : « ولقـد أهلكنـا القرون من قبلكم لما ظلموا » ، « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » ، « ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

تسلية وعبرة

ثم جاءت هذه الآيات « واتل عليهم نبأ نوح » تفصل من هذه النذر الاجمالية قصتين ، لهما كثير من الشبه بقصة محمد مع قومه : قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى وهارون . وقصرت الحديث فى قصة نوح على ما دعت اليه حالة الرسول مع قومه وقت نزول هـذه السورة ، حينما فقد المدافع عنه فيما بينهم ، وهو عمه أبو طالب ، وفقـد النصير فى البيت ، بموت زوجة خديجة ، واشتد القوم فى ايذائه والكيد له ، فأخـذت الآيات فى تسليته صلى الله عليه وسلم بموقف نوح من قومه ، وثباته على دعوته ، معتمدا فى ذلك على الله وحده ، وأرشدته الى أن طول الامد على نوح ، وشدة أعراض القوم عنه ، لم يضعف من قوته ، بل تحداهم ،

★ الآيات من ٧١ الى نهاية الآية ٨٩ من سورة يونس

وطلب اليهم أن يجمعوا له كل ما يستطيعون جمعه من قوى الكيد والشر ، وأن يتحروا فى أمرهم ، ويزيلوا عنه كل شبهة تعترضهم فى سبيل الايقاع به والقضاء عليه ، ثم يتجهوا له بكل ما هيئوا ورتبوا ، دون امهال او تردد ، وسوف يرون انه لا يرفع لهم رأسا ، ولا يعبأ لهم بجمع ، وكيف يهتز بجمعهم وهو لم يطلب بدعوته اياهم جاها ولا مالا ، وانما يطلب بدعوته تنفيــــذ أمر ربه ، الذى وكل أمره اليه ، واعتمد فى السراء والضراء عليه : « يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت » .

فهذا يا محمد ، موقف أخيك نوح ، تمسك به وان طال عليك الامد ، واشتدت شكيمة الاعــداء ، وثق بأن عاقبتك عاقبته ، وعاقبة المكذبين لك هى عاقبة المكذبين له ، وتلك سنتنا ولن تجد لسنتنا تبديلا ، فليتحصن أرباب الدعوات الصــــالحة بايمانهم وتوكلهم على الله سينظر الله اليهم ، وينزل بأعدائهم ما جرت سنته على انزاله بأعداء الحق فى كل زمان ومكان . وهكذا فعل بقوم نوح ، وفعل بنوح ، « فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنــــا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

اما قصة موسى وأخيه ، فقد تحدثت الآيات فيهمــا عن مراحل الدعوة من مبدئها الى منتهاها : تحدثت عن العوامل التى استكبر بها فرعون وملؤه عن قبول الدعوة، وردتهـــــا الى أمرين : التمسك بالموروثات الفــاسدة « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » . واعتقاد أن دعــوته تسلبهم كبرياء الملك والعظمة ، وتجعلها لموسى واخيه « وتكون لكما الكبرياء فى الارض » وأخذوا بهذا

وينفرون الناس من الدعوة ، ويقولون : « ان هذا لسحر مبين » .

الباطل هزيل

ثم تحدثت عما جرت به سنة المكذبين من أساليب المقاومة الهزيلة التى توقع فى روع العامة ان المعارضين على حق فى المعارضة والتكذيب ، ولكن الباطل لا صبر له على البقاء امام الحق ، وسرعان ما تتزلزل قوائمه ، ويقع صريعا فى ميدان التحدى « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » .

وقد كان من المنتظر بعد هذا أن يقبل النــاس على الايمان ، ولكن الجبروت يتخذه صاحبه سلاحا فى يده، يرد به الناس عن تلبية الحق ، وبهذا يحجم كثير عن الايمان ، ولا يقوم عليه الا أرباب النفوس القوية ، التى تبدد قوة ايمانهم غشاوة الخوف عن قلوبهم ، « على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » .

ثم يرشد الله موسى وأخاه الى وسيلة تشد من أزرهم ، وتوقع الرعب فى قلوب أعدائهم ، وهى ان يتقاربوا ويجعلوا بيوتهم متقابلة ، سبيلا للتكتل ، وأن يتجهوا الى الله بالدعاء واقامة الصلاة ، فتسموا أرواحهم ويشرق عليها نور الحق .

ثم يتجه موسى الى ربه : « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » .

ينطلق لسان موسى بدعـــوة الاخلاص والغيرة على الحق ، فتخترق حجب السماء ، ويسمع موسى من ربه : « قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان ســـبيل الذين لا يعلمون » وهكذا تصل القلوب المؤمنة الى نصر الله وتأييده .

الربع السادس :

النظر فى العواقب

لو تمثل للسارق وقت سرقته قطع يده أو للزانى وقت زناه ، حرمانه من الرأفة . أو تمثل للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا قتلهم أو نفيهم من الارض ، لمـا أقدم سارق على سرقة ، ولا مجرم على هتك عرض . ولا مفسد على الافســـاد . وتلك طبيعة بشرية تتجلى فى المجرمين حينما يأخـــذهم العذاب ، وينزل بهم النكال ، وهكذا قص الله علينا المرحلة الاخيرة من شأن موسى وفرعون فى تأييد الحق ونصرته ، وازهاق الباطل والقضاء على عناصره .

ايمان بعد فوات الاوان

يقتحم فرعون وجنوده البحر وراء موسى وقـومه ، بقصد الفتك بهم « بغيا وعدوا » حتى اذا ما أخذ البحر يطبق عليه ، تنبه وعيه ، وأخذ لسانه يضطرب بكلمة

★ الآيات من ٩٠ الى آخر سورة يونس

التوحية «آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل».
ولكن هيهات بعد أن كاد للحق ، وكان فى سعة من الامر ، والرسول يدعوه ، وآيات الله تتلى عليه وهو لاه بسلطانه، مغتر بقوته . هيهات وقد نزل القضاء ان يقبل منه ايمان ، أو يلحقه عفو وغفران ، « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . ولم يبق سوى أن يجعل منه آية، يعتبر بها كل من يصل اليه نبؤه ، ويعرف سنة الله فى المفسدين : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » . وتلك هى الخاتمة السيئة التى زلزلت عرش الطغيان . وجدير بها أن تظل ذكراها ماثلة ، يتذكر بها كل جبار عاقبة الجبروت والطغيان « وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

بعد هذا تختم السورة بجملتين من الآيات ، فيهما فصل الخطاب من جهة القرآن وحقيته ، ومن جهة ثبات الرسول وقوة ايمانه بدعوته .

تأسيس الايمان

أما الجملة الاولى من الآيات ، فقد افترضت وقوع الشك فى القرآن وأرشدت الى ما يقطع دابر هذا الشك ، ليكون الايمان عن حجة وبرهان ، لا خضوعا لقهر ، ولا استسلاما لتقليد : « فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسال الذين يقرأون الكتاب من قبلك » وبذلك يخلع الانسان نفسه من طائفة الشاكين المكذبين ، الذين اتضحت لهم حجج الحق ، وران العناد على قلوبهم، فلم ينتفعوا بالآيات ، وحقت عليهم كلمة الله وكانوا من الخاسرين .

وقد ضربت الآيات قوم يونس مثلا ، فانهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزى ومتعهم بما قدر لهم من نعيم ، فهلا يسلك هؤلاء المكذبون سبيلهم ، فينجوا كما نجوا ، ويمتعوا كما متعوا ؟ . ان التكذيب لم يكن مفروضا عليهم ، وان الايمان لا يكون عن قهر والجاء ، ولو أراد الله ذلك لآمن من فى الارض كلهم جميعا ، ولكن خلق الله الانسان وجعله مستعدا للايمان والكفر ، تصحيحا لقاعدة التكليف والجـــزاء ، وتلك سنته التى ربط فيها بين الاسباب المقدورة ، والمسببات المطلوبة : « وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعـــل الرجس على الـذين لا يعقلون » .

واذن الله ، سنته ونظامه فى ايمان من يؤمن وكفر من يكفر ، عن اختيار وتقبل لا عن قهر والجاء ، واذا كان الشأن مبينا على ما يختار المرء لنفسه ، فسبيله أن ينظر ويفكر ، فمن أقبل بقلبه على المعرفة ، آمن وعرف ، ومن اعرض عن النظر والتدبر فماذا تنفعه الآيات والنذر ، ليس له فى سنتنا سوى ما قصصنا من أخبار الذين خلوا من قبل « قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

ثبات الرسول

ثم أخذت الجملة الثانية من الآيات ، تصور ثبات النبى على دعوته وتؤكد انفعال نفسه بها ، انفعالا يبطل ما يوجه اليه من مساومة أو محاولة ، وفى هذا السياق ، تقرر الآيات الاصول الاولى للدعوة فتذكر تطهير القلب من عبادة غير الله ، واخلاص العبادة له وحده وربط القلب

به عن طريقه المستقيم الذى لا عوج فيه ولا انحراف ، ثم توصد باب التوجه الى غيره بالعبادة ، وتحذر دعاء غيره أيا كان ، وترشد الى أن غيره أيا كان ، لا ينفع ولا يضر ، والعاقل يجب أن يعرف الحقائق ، وأن يركن اليها ، فكما لا يعبد غير الله لا يدعو غير الله ، ولا يطلب سواه ، فهو صاحب الامر ، وصاحب التصريف ، ولم يجعل لاحد من عباده حق التصرف فى خلقه : « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وأن يردك بخير فلا راد لفضله .

هو هو الدين الحق ، أوحاه رب الناس الى الناس ، واضح المعالم ، بين المسالك فمن اهتدى به فقد أنقذ نفسه ، وحصل سعادته ، ومن ضل واتبع الاهواء فقد دس نفسه وعرضها للخزى والنكال

أما أنت يا محمد فسر فى طريقك وثبت قلبك ، «واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

ســــورة هـــــود

الربع الاول :

* هود عليه السلام ، هو أول رسول الى قوم عاد . وعاد أول امة من نسل سام بن نوح ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باسمه خمس مرات فى هذه السورة التى سميت به ، وقالوا : انه أول من تكلم باللغة العربية .

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر المكى : تقرير أصول الدين ، واقامة الادلة عليها ، ورد الشبه التى كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها عليه السلام .

عناصر الدعوة الالهية

والمتدبر للسورة يرى انها .. أولا : قررت عناصر الدعوة الالهية ــ وهى : التوحيد ، والرسالة ، والبعث

★ الآيات من اول السورة الى نهاية الآية ٢٣ من سورة هود

ـ عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للايمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت ذلك فى أربع وعشرين آية يختم بها الربع الاول منها : « مثل الفريقين كالاعمى والاصم .. » .

ثم أخذت تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ، بيانا لوحدة الدعوة الالهية ، وتسلية للرسول عليه السلام ، وانذارا للمكذبين ، واستغرق ذلك الى نهاية الآية التاسعة والتسعين : « واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » ثم ذكرت فى اثنتى عشرة آية بالوعد والوعيد ، وبسنة الله فى أخذ الظالمين . وختمت بتوجيه الخطاب الى النبى ومن تاب معه فى مثلها اثنتى عشرة آية مرشدة الى منهاج السعادة والفلاح . وتبتدىء من قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا » الى نهاية السورة : «ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون » .

كتاب محكم

هذا هو موجز ما اشتملت عليه سورة هود . وقد بدأت فوصفت الكتاب بالاحكام ، فلا يتطرق اليه خلل ، وبالتفصيل فليس فيه خفاء وبأنه تنزيل الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا تخفى عليه مصلحة ، تأخذ فى تقرير الوحدانية والبعث ، وان الله سبحانه هو وحده المرجع فى طلب المغفرة وقبول التوبة ، وأن مهمة الرسول ، هى الانذار والتبشير : « ألا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم

متاعاً حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير » .

وفى أثناء ذلك تشير الى ما يحصل عليه الانسان من سعادتى الدنيا والآخرة اذا هو لبى الدعوة وآمن بها ، وما يصيبه من خسران وشقاء اذا هو استمر على كفره واعراضه ، ثم تصور لنا حالة المعرضين فى محاولتهم انكار الحق ، وانطوائهم فى ثيابهم على صدورهم مع وضوح الادلة فى أنفسهم وفى الآفاق : « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها » . « وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام » .

ثم ترشد الى أن أعراضهم عن الحق لم يكن لخفائه ، وانما هو لاضطراب نفوسهم وترددها بين بأس الضراء وبطر النعماء ، ولو انهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر فى قلوبهم ،لكان لهم من صبر الايمان وصالح الاعمال ما يطمئنهم على حسن العاقبة : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . ولكن القوم مع هذا البيان الواضح ما كانوا يتركون احراج الرسول باقتراح ما لا يدخل تحت قدرته من الآيات ، فأخذت الآيات فى تسليته ، وبيان ان فى القرآن الغناء لمن يريد أن يؤمن ، وليس على الرسول الا أن يقوم بمهمته ، وهى التبليغ والانذار ، وان تكذيبهم اياه لم يكن لطلب حجة هم فى حاجة اليها . وانما هى الدنيا ، ملكت عليهم قلوبهم ، وصرفتهم عن النظر فى حجة الله التى أنزلها بعلمه ، وسيرون ما ينزل بهم من جزاء : « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ،

وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثم تزيده تثبيتا على حقبة الدعوة بأنها دعوة يؤمن بها من طهر قلبه وأتجه اليها ، والى نفسه فاتخذ منهما البرهان على صدقها ، ثم رجع الى تاريخ البشرية وعرف أنها رسالة الله الى خلقه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به » . وما يكفر به الا الذين حرموا من ادراك الوجدان وبرهان العقل ، وعميت عليهم أنباء الاولين : « فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك » .

ثم تعود الآيات فتصف المكذبين بجملة من الاوصاف وترشد الى سوء مصيرهم ، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع . ثم تختم عليهم بقوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . ومن شدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم : « مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون » .

الربع الثانى :

* هذا هو الفصل الثانى من سورة هود ، ومن سنة القرآن ان يتبع تقرير الدعوة بما يدل على انها بأصولها وأدلتها ونتائجها فى الدنيا والآخرة ، هى دعوة الالوهية الوحيدة ، التى بعث الله بها جميع رسله من مبدأ الخليفة

★ الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٠ من سورة هود

الى مرحلتها الاخيرة ، مرحلة الاكمال والاتمام ، وهى مرحلة محمد عليه السلام . وان محمدا لم يكن بدعا فيها ، كما انه لم يكن بدعا فى المقابلة بالتكذيب من قومه، وانما شأنه فى الدعوة وفى أعراض قومه عنه ، شأن اخوانه السابقين مع أممهم ، وسيكون شأنه ، وشأن قومه فى العاقبة شأنهم وشأن أقوامهم : « فهل ينظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

وفى هذا السبيل ذكرت السورة نوحا وقومه هودا وقومه ، وشعيبا وقومه ، وموسى وفرعونه . وفى كل قصة من هذه القصص عبرة أو عبر ، جدير بدعاة الحق فى كل زمان ومكان أن يملأوا بها قلوبهم ، فيطمئنوا الى نصر الله وتأييده ، وجدير بالمكذبين أن يتمثلوها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم من قبل .

قصة الاب الثانى للبشرية

وبدأت السورة بالاب الثانى للبشر ، وهو نوح عليه السلام ، فذكرت انه دعا قومه الى توحيد الله ، وانه انذرهم الشقاء الابدى اذا هم أعرضوا عن دعوته ، واستمروا على عبادة الاصنام من دون الله : « انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » وذكرت أن القوم طعنوا فى رسالته ، فقالوا : انه بشر مثلهم ، أى والبشر لا يصلح فى نظرهم أن يكون رسولا ، وقالوا : انه لم يجب دعوته الا أراذل القوم يريدون الطبقة الدنيا و « الفقراء » ولو

كانت حقة لسارع اليها أرباب المصالح والثراء « الطبقة العليـــا » ، وانه لا ينبغى لهم أن يجعلوا أنفسهم وهم أصحاب المال والسلطان فى مستوى هؤلاء الفقـــراء ، يجمعهم واياهم دين واحد ، ويخضعون معهم لسلطان واحد ، وانهم لا يرون لهم ، ولا لرسولهم من المزايا ما يهون عليهم أن ينزلوا بأنفسهم الى مشاركتهم فى اتباعه والايمان به ، ولعل هذا الموقف من قوم نوح ، هو أول بعث لفكرة الطبقات ، التى تقلب بها المجتمع البشرى — ولا يزال — على كتل من الجمر ، محـــرقة للفضائل ، مضيعة للكفارات ، فمتى يفيق العالم وهو فى آخر مراحل الرقى ، ويخلص نفسه من هذه العلة المزمنة التى اندفع اليها وهو فى طور الطفـولة التى لا رشد فيه ؟

ثم جاءت الآيات تفند هذه الطعون ، وتقتلع هذه الفكرة من أساسها وتقرر أولا أن صاحب الدعوة ، وقد توافرت لديه أدلة الايمان بها ، ليس من شأنه أن يكرههم عليها اذا خفيت عنهم ، وهو لا يطلب منهم مالا ولا عزة ولاترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان ، وانما يدعوهم اليها طلبـــا لخيرهم ، وعملا على مصلحتهم ، فعلام هذا الموقف الذى ان دل على شيء فانما يدل على التمرد والبعد عن فهم الحقائق ؟ ، والا فـكيف ينقمون منه أن أجاب الفقراء دعوته ؟ وهى دعوة الله الذى لا يزن خلقه بميزان الغنى والفقر ، ولا بميزان القوة والضعف وانما يزنهم بمقياس الصفاء والاخلاص ، والايمان بالحق الذى يدعو اليه . كيف ينقمون منه هذا ويطلبون منه ان يطردهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله أن طردتهم » ؟

ان النبوة ليست أكثر من اصطفاء الله لمن يقوم بتبليغ رسالته ، وليس من لوازمها ، بل ولا يصح أن يكون من لوازمها أن يكون الرسول ملكا ، أو أن يكون عنده خزائن الله ، أو ان يكون محيطا بغيب الله فهو بشر ، يقف عند حدود البشرية ، لا يتجاوزها الا بمقدار ما يوحى اليه ، وهو بذاته لا يعلم الا ما يعلمه البشر ، ولا يقدر الا على ما يقدر عليه البشر ، وان الله قد كلفه بتبليغ رسالته ، ولم يجعل الناس أمامه فى التبليغ الا كما جعلهم فى الخلق ، سواسية لا طبقات ، ولا أسياد ، ولا أراذل « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين » .

سفاهة قوم نوح

وقف نوح مع قومه الف سنة الا خمسين عاما ، يقيم الحجة ويدفع الشبهة حتى اخرسهم الحق ولم يجدوا منفذا للقول . فراحوا يستعجلون العذاب الذى توعدهم به ، شأن الموغل فى العناد ، يلقى بنفسه فى اليم ، أو فى النار ، حتى لا يقال : غلب على أمره ، وخضع لغيره ، ولا يدرى انه يسجل على نفسه نهاية الخزى فى الاعراض عن الحق تبعا لشهوة باطلة ، أو خيال فاسد : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » ، فيقرر لهم نوح الحق الذى يؤمن به « انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين » .

وتأتى المرحلة الاخيرة فيعلم الله فيها نوحا أنه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن ، فاطو صفحة جهادك معهم ،

واتخذ وسيلة النجاة لك ولقومك : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون » ، فيمتثل نوح الامر ، ويصنع الفلك « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » ، فيؤكد لهم ان عاقبتهم في موقف السخرية والعـــذاب ، هي عاقبتهم في موقف السخرية بالرسالة ، سيصيبهم خزى العذاب ، كمـــا أصابهم خزى الحجة والبرهان . وان من العذاب ما يرفع صاحبه الى الهامات ، وهو عذاب الرسل والمجاهدين في سبيل الحق يصيبهم على أيدى الطغاة الظـالمين ، وهو عذاب مستعذب ، مشرف لصاحبه ، يعقبه نعيم مقيم .

ومن العذاب ما ينزل بصاحبه الى أحط الدرجات ، ويكون مثلا يشفي صدور المؤمنين ، ويزعزع كيان المبطلين ، وهو عذاب الاعراض عن الحق والكيد لاهله وهو عذاب الخزى الذى يعقبه عذاب دائم أليم « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

الربع الثالث :

بنوة الايمان هى الحقة

* صنع نوح السفينة ، وأتم عدته ، ونفذ ارشاد الله ، وحمل فيها مع أتباعه من كل صنف زوجين اثنين ، وفار التنور ، وتفجر الماء حتى طفى ، واخذت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » .

★ الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٠ من سورة هود

فأبى الولد ، وعزف عن دعوة ابيه ، واعتقد أنه يعتصم بغير الله ، ودفعت نوح شفقة الابوة الطبيعية ، فطلب من الله انجاز وعده فى أهله معتقدا ان ابنه من أهله ، الذين وعد الله بنجاتهم مع نوح : « ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وانت أحكم الحاكمين » . فيرد الله عليه بأن النبوة الطبيعية لا مكانة لها عند الله ما لم تشد أزرها بنوة الحق ، والاعتصام بأمر الله « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » ، « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » ، وهذا فى رسالة محمد يؤيد ويفصل ما جاء فى رد الله على نوح : « يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح » ويدرك نوح زلته ويلتمس من ربه المغفرة : « انى أعوذ بك ان أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » فيغفر الله لنوح زلته ، ويتم عليه وعلى من معه نعمته : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

الطوفان

وقع الطوفان ، وذهب بأعداء الله ، أعداء الحق ، وتلك عبرة القصص فى القرآن ، وقد صرف الناس عنها بحوث وضعت فى الكتب والتفاسير ، شغل الناس بها عن العبر والعظات ، وكان من ذلك الكلام الكثير فى عموم الطوفان وخصوصه ، وعموم رسالة نوح وخصوصها ، فمن قائل: بأن الطوفان لم يكن عاما ، وأن التناسل البشرى لم يكن خاصا بذرية نوح ، ولم يكن نوح الاب الثانى للبشر ، وأن رسالته كانت خاصة بقومه بحكم السنة الالهية فى ارسال

الرسل الى أقوامهم . ومن قائل بأنه لم يكن بسطح الارض سوى قوم نوح الذين لم يؤمن منهم الا قليل ، وهم الذين كانوا معه فى السفينة ، وأن رسالته كانت عامة بحكم انحصار الناس فى قومه ، لا بحكم انه مرسل لهم ولغيرهم ، وأن نوحا هو الاب الثانى للبشر ، تناسلت البشرية من ذريته فقط بعد الطوفان ، وأن الطوفان كان عاما للمعمور من الارض اذ ذاك .

هكذا اختلف الناس وأكثروا من القول .

رأى الامام الاكبر

والذى نراه أن المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحى لبحث الانسان ، لا تفسيرا للقرآن ، وليس من مهمة القرآن أن يحدد الاوضاع ، ولا أن يعين الوقائع ، وانما مهمته الارشاد الى ما تدل عليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة . وعلى كل ف « نوح » أرسل لقومه فقط ، أما انه كان فى المعمورة غير قومه ولم يرسل اليهم ، أو أنه لم يكن فيها سواهم ، فهذا شىء ليس له تأثير فى هدف القصة ، ولا يمس اختصاص محمد عليه الصلاة والسلام بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سطح الارض ، ومن سيوجد عليها الى يوم الدين : « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

هذا . وفى العظة المقصودة من هذا القصص ، وفى دلالته على أن القرآن من عند الله ، يختم الله قصة نوح بقوله لنبيه على مسمع من القوم : « تلك من انباء

الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » .

قصة هود

ثم تتبع الآيات قصة نوح ، بقصة هود عليه السلام ، فتذكر دعوته أيضا الى قومه ، وانه اخذ بهم الى سبيل الخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده ، واستغفارهم مما هم فيه من الطغيان : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتوالوا مجرمين » . وتذكر معارضة قومه له وانكارهم عليه ، وان الهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرأ من آلهتم ويتحـــداهم ، ويستنهض همتهم فى أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وانه سوف لا يعبأ بهم ولا بجمعهم : « انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » .

وتذكر بعد ذلك خاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله فى نصرة أوليائه ، وخزى أعدائه :

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا أن عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود » .

الفصل الخامس :

سورة الكهف وسورة مريم

ســـورة الكهف

تقـــديم :

* سورة الكهف هي السورة الثالثة من سور خمس في القرآن الكريم ، بدأت بـ « الحمد لله » قبلها سورتان هما الفاتحة ، والانعام ، وبعـــدها سورتان هما سبأ ، وفاطر . وسورة الـكهف تضع حدا عن طريق التربية الروحية لضلال قديم الفه الناس في تقويم الحياة ، ذلك هو تقدير القيم الانسانية بحظوظ المال والثراء والجاه ، وتبين أن ما على الارض من زينة ونعم مادية انمـــا كان طريقا لاختبار الناس أيشكرون أم يكفرون ؟ . وليس هو كل ما يقصد من الحياة ، بل هناك ما هو أسمى منه وأرفع : « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملا » .

قصص وامثلة للعظة والعبرة

وفي سبيل ذلك نقص ثلاث قصص لكل منها دلالتهـــا الخاصة في تقدير الحق بذاته ، وارتباطه بطهر العقيدة

* تقدمة عامة لسورة الكهف

ونقاء النفس لا بالمال ولا بالحياة : قصة أصحاب الكهف ، وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . وقصة موسى مع العبد الصالح ، وهي قصة التواضع الذي لا يعرف في سبيل العلم والتكمل بالمعرفة التكبر ولا الغرور : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » ؟ . وقصة العدل واغاثة الضعيف ، وهي قصة ذي القرنين الذي اتصف بعدله وقضى بقوته على المفسدين .

وكما استخدمت السورة في سبيل هدفها هذه القصص الثلاث استخدمت فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة ، بينت بها ان الحق لا يرتبط بكثرة المال ولا بعلو الانسان ، وهو مثل الغني المكاثر بماله والفقير المعتز بايمانه : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين .. » ، ومثل الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء» . ومثل ابليس وما أصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه : « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس » . وهنا حذرت الآيات أبناء آدم فسجدوا وأعوانه أولياء من دون الله وبينت لهم انه وذريته أعداء لهم من أول النشأة ، يدفعونهم الى الشر يكيدون لهم عن طريق الاغواء ، ويصرفونهم عن أرباب النفوس الزكية ويطلبون اليهم أن يطردوهم عن مجالسهم ، لما هم عليه من فقر وضعف .

ثم تبين ان هؤلاء الذين يحاولون اضلال الناس عن الحق ليس لهم في شأن الله ونظام خلقه من أمر ، فهو لم يحضرهم وقت ان خلق ونظم ، وهو لم يعتمد عليهم في

فعل او يشركهم في رأى ، فكيف يجعلون لأنفسهم سلطان التوجيه ؟ ، وكيف تروج عند الناس وسوستهم .. ؟ « ما أشهدتم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » . فتخلوا عنهم كما سيتخلى عنهم شركاؤهم ويسلمونهم الى النار « ولم يجدوا عنها مصرفا » . ثم تشير الآيات الى أن اعراضهم عن الحق لم يكن ناشئا عن حاجة الحق الى دليل وانما هو الطغيان الذي يمنع صاحبه من الايمان ، ويجعله يجادل بالباطل ليدحض به الحق ويحول بينه وبين التفكير فى العاقبة فلا يتذكر الا اذا استمر به العذاب او فاجأته سنة الاولين ، تلك سنة المنكرين من قبل ، وسيراها المنكرون من بعد .

ثم تذكر الآيات أنه لولا رحمة الله بعباده وأنه يمهلهم رجاء التوبة لعجل لهم العذاب ، ولكنه جعل لهم موعدا لن يجدوا من دونه مصرفا عن العذاب « وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » .

وجوب التواضع فى طلب العلم

ثم تذكر الآيات قصة التواضع فى طلب العلم الماثلة فيما جرى بين موسى والعبد الصالح : فان موسى مع علو شأنه في المعارف الالهية لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق فى سبيل العلم دون نظر الى مكانة من يريد التعلم منه ، وفى هذا ما يخفف حدة الكفار على الفقراء، ويرشد الى أن العلم أسمى من المال ، وانه لا ينبغى أن يتخذ فقر العلماء مانعا من السعى اليهم ، وتزكيه النفس بعلمهم ، فهذا موسى نبى الله وكليمه ، لا يكاد

يعلم بالعبد الصالح وبما عنده من علم حتى يجمع امره على الوصول اليه كيفما كان الطريق « لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » .

والتقى موسى بالعبد الصالح وقدم له نفسه مستأذنا فى أن يجعل نفسه تبعا له ليعلمه : « هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » . فيطلب منه العبد الصالح التسليم فيما يرى والبعد عن الجدل : فيطمئنه موسى على غاية الخضوع : « ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » . فيعده العبد الصالح بالبيان اذا هو التزم الشرط : « فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » .

وعلى هذا التعاقد ركبا السفينة ، وكان أول ما فوجىء به موسى ان العبد خرقها ، وكان لخرقها هول فى نفس موسى أنساه الالتزام السابق ، فأنكر عليه ، ثم عاد يعتذر بالنسيان .

وكان الحادث الثانى أن قتل العبد الصالح غلاما ، فعاد موسى الى الانكار وعاد العبد الصالح الى اللوم ، وموسى الى الاعتذار ، وهدده صاحبه بقطع العلاقة ان عاد الى الثالثة ، وعاد الى الثالثة فأنكر عليه اقامة الجدار المائل ، وهو لقوم لم يحسنوا اليهم ، وهنا نفذ العبد الصالح تهديده لموسى وقال « هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

الربع الاخير :

سر الاحداث التى انكرها موسى

وفى هذا الربع يفى العبد الصالح لموسى بما التزم ، فيكشف له عن سر الاحداث التى فعلها وأنكرها عليه موسى ، وهى خرق السفينة ، وقتل الغلام ، والاحسان لقوم لا يعرفون قيمة الاحسان . وقد كان منشأ الانكار عند موسى انه لم يعرف سببا يبيح اتلاف مال الغير ولا قتل النفس ، ولا تحمل المشــقة لقوم لا يطعمون المحتاج . ويدور البيان على أن وراء الظاهر واقعا يعلمه العبد الصالح ولا يعلمه موسى ، وهو الذى حمل العبد الصالح على فعل ما فعل ، وذلك الواقع هو أن ملكا ظالما كان يتتبع السفن الصالحة فى البحر يغتصبها من أهلها ، فرأى العبد الصالح أن يعيبها فتسلم لأهلها الفقراء : « وأما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » . وأما الغلام ، فقد علم العبد الصالح أن بقاءه مفسد لابويه ، فاحتفاظا بسعادتهما، وابقاء على ايمانهما قتل جرثومة شرهما : « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » .

وفى حادث الغلام يتجلى بوضوح معنى قوله تعالى : « فوجدا عبدا من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . ومعنى قوله تعالى : « وما فعلته عن أمرى » فالله واسع العطاء يهب ما يشاء من رحمته وعلمه لمن شاء من عباده .

★ الآيات من ٧٩ الى آخر سورة الكهف

ولا متمسك لمن يدعون علم الغيب بهذه القصة ، فان احد طرفيها كان نبيا ، يوحى الله اليه ولا يقره على ضلال ولا بهتان . ومن اين لهم مثل موسى نبى يوحى اليه ، وتجرى حوادثهم على يديه .

واما الجدار فليس الشأن فيه لاهل القرية ، وانما هو لايتام كان لهم تحته أموال ، فمحافظة عليهــا أقام العبد الصالح الجدار . وتلتقى أحداث العبد الصالح الى حد ما ، مع قاعدة ارتكاب « أخف الضررين » التى تبيح للانسان أن يقدم على فعل فيه شر ما ، متى علم أن فيه خيرا أكثر من شره وقديما قيل : « شر قليل فى سبيل خير كثير خير كثير » .

ولقد عرف موسى من هــذه الرحلة ان وراء الظاهر الذى يحيط به الانسان فى عادته باطنا تشرق عليه فيه انوار الحقائق ، وبذلك يأخذ نفسه بالصبر فى تجريد النفس عن التأثر بالعلائق المادية ، والمنغصات البشرية ، ويصفوا لله فى الدعوة الى الله .

نبأ ذى القرنين

ثم تقص الآيات نبأ ذى القرنين وهو ملك مكن الله له بتقواه وعدله أن يبسط سلطانه على قرنى المعمورة شرقا وغربا ، وكان من عدله الذى تقوم عليه الحياة وتســعد به الجماعة ذلكم المبدأ العظيم .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحــــا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا » .

ولا تصلح رعية لم يضرب فيها على أيدى الظالمين ، كما لا تصلح رعية لا يلقى المحسنون فيها جزاء احسانهم، فبخس احسان المحسن لا يقل فى ضرر الجماعة عن محاباة المسيء ، كلاهما ينزل بالجماعة الى الحضيض . فاذا كانت محاباة الظالم تغرى بالظلم فان بخس الاحسان يحرج الصدر ويميت قوة النشاط . وتلك هى العبرة الخالدة فى هذا الجانب من قصة ذى القرنين .

أما الجانب الآخر من قصته : فهو ماثل من قوته واعتماده على الله في اغاثة المستضعفين ونصرتهم وانقاذهم من افساد المستعمرين المغيرين عليهم وعلى بلادهم بدون حق .

يصل ذو القرنين الى قوم لا تساعدهم لغتهم على حسن التفاهم معه ، ولكنه يفهم شكواهم والتجاءهم اليه : « قالوا ياذا القرنين ان ياجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ؟ فتدفعه عاطفة الخير الى التلبية معتمدا على ربه قال : « ما مكنى فيه ربى خير » . ويطلب منهم أن يتحملوا نصيبهم من المعونة باخلاص وقوة فلا يتواكلوا . ولا يلقوا بكل امرهم عليه ، ويقيم ذو القرنين السد بين الجبلين ، فلا يجد المفسدون اليهم سبيلا : « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

واجب الراعى والرعية

وهذا شأن الملوك المخلصين المحبين للشعوب، ولا تقبل دعوة خدمة الشعوب الا اذا اقترنت بالصدق فى عمل حازم يقى الشعوب ضرر المفسدين ، وواجب الامة مع

هؤلاء المخلصين أن يبذلوا فى معونتهم ما اســـتطاعوا بقوة واخلاص . أما دعوى خدمة الشعوب مع الـكيد لها وتأليب الاعداء عليها ، فهى دعوى يجب أخذ الحيطة منها وواجب الامة حينئذ هو اعتمادها على نفسها وعلى قوتها النابعة من الايمان وحب الوطن .

ثم تقرر الآيات ان الله بسننه يترك الناس فى هذه الحياة يتدافعون ويتنافسون : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » . ويستمر شأنهم كذلك الى يوم الدين فتنكشف لهم الحقائق بعد أن كانت أعينهم فى غطاء ، وبذلك تحذر الكافرين وتعلن أوصاف الآخرين ، وتردها الى الكفر بآيات الله والاستهزاء برسله . ثم تذكر جزاء المؤمنين الصالحين ، وتقرر سعة علم الله وسلطانه ، وعجائب كونه وأسرار ملكه . ثم تأمر الرسول بتقرير بشريته ، وأن يجمل للقوم رسالته : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

سـورة مـريـم

كهيعص

* سورة مريم من السور المكية التى تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به ، وتقرر عقيدة البعث والجزاء . وهى احدى تسع وعشرين سورة بدأت بحروف هجائية . وقد لوحظ ان هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف ، كالقرآن ، وأنباء الغيب ، والتنويه بشأن القلم والخلق ، والايجاد على طريقة غير مألوفة .

ولعلها لهذا بدأت كلها ببدء غير مألوف .. وهو تلك الحروف الهجائية التى تنطق بأسمائها لا بمسمياتها . وذلك ليكون البدء الغريب قرعا للاسماع واعدادها لتلقى غرائب لا تعرف السنن المألوفة .

★ الآيات من أول السورة حتى نهاية الآية ٣٦ من سورة مريم

زكريا ويحيى

وقد ذكرت سورة مريم من تلك الغرائب قصتين : قصة نبى الله زكريا وولده يحيى ، وقصة السيدة مريم وولدها عيسى ، وارشدت فى أولها ان ما ستتحدث به عن زكريا واجابة دعائه ، أثر لرحمة الله به ، ولا ريب ان الخلف الصالح ، الذى يحتفظ بمكانة أبيه ويقوم بمهمته من بعده ، امتداد لحياة الاب ، واستمرار لأثره ، الذى يتحقق به نفعه فى الممات ، كما تحقق نفعه فى الحياة .

الدعاء المجاب

عرف زكريا بدراسة أحوال أقاربه أن ليس فيهم من يطمئن اليه فى القيام بدعوته ، ورأى رحمة ربه لمريم وهى فى كفالته ـ كما تحدثت عنهـا سورة آل عمران ـ فشجعه ذلك على دعاء ربه أن يمنحه على كبره وليا يرثه فى مهمته ، فابتهل بعجزه وضعفه وخوفه من أقاربه : « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » ، « وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا » . فاخترق دعاؤه الحجب واستجاب له ربه : « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ، وأكمل البشرى بالخلال الطيبة التى صاغ بها عطيته ، فأخذ السرور من زكريا مأخذه ، وعاد الى المناجاة فرحا مستبشرا : « رب انى يكون لى غلام » . فيسمع من ربه الكلمة النافذة : « هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » . فيعود زكريا ملتمسا علامة يعرف بها

حصول الحمل ، ويتعجل بها السرور الواقعى : « رب أجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . وقد جاءته هذه الحالة فكان لا يخاطب قومه الا بالوحى والاشارة .

وعبرتنا من قصة زكريا أن أقرب الدعاء الى الاجابة ما كان نابعا من القلب وخفيا حتى عن النفس ، ومقترنا بدلائل الذلة والحاجة ، وأخيرا ما كان مقصودا به وجه الله والنفع العام .

قصة مريم

وتذكر السورة قصة مريم وقد آخى القرآن بين القصتين فى غير موضع ، وقصة مريم أدخل فى الغرابة من قصة زكريا ولذلك ذكرت قبلها تمهيدا لها ، وقد تحدثت سورة آل عمران عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى وبشأنه فى بنى اسرائيل . وتحدثت سورتها هذه عن حملها بعيسى ، وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشرا سويا ، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام : « انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » . ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها ، واشتد حزنها ، لا لشك فى نفسها ، وانما لتغدير ظنون الناس فيها « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . فيثبتها الله بآياته ، وينزع منها عوامل الاضطراب والخوف : « فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » ولكن مريم لا تزال حاجتها النفسية تلح فى معرفة

ما تجيب به قومها . وهي لنفسها أعرف ، ولا تملك من امر الناس شيئا ، فتلبيها الرحمة الالهية : « فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما » . وقد كان من قومها ما قدرت : « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » . فالتزمت الصمت وأشارت الى كلمة الله ، فأجابهم بلسان بين واضح : « انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

وبذلك تمت نعمة الله على مريم كما تمت على كافلها من قبل . وهكذا أجمل عيسى وهو فى المهد رسالة السماء الى الارض . « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » ولكن الاهواء أخذت بالناس فى شأنه الى جهات متباينة، فمنهم من قال به على مريم بهتانا عظيما ، ومنهم من قال به على الله شيئا ادا : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ..

الربع الثانى :

قصة ابراهيم

* وتذكر الآيات ، بعد قصتى زكريا ومريم ، قصة ابراهيم ، ولابراهيم مكانة انعقدت عليها القلوب . وقد

★ الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٢ من سورة مريم

عنى القرآن بالحديث عنه عنـــاية خاصة . فتحدث عن امامته ، وعن بنائه البيت ، ودعوة الناس الى حجة ، وتحدث عن رحلته ، واسلوبه فى الدعوة والحجاج ، وتحدث عن كرمه ، وتضحيته بنفسه وولده ، وتحدث عن وصيته لذريته ، وتحدث عن علاقة محمد به ، وبين أنه أثر دعـــوته ، وأن رسالته من رسالته . ومن ذلك كله اتخذه القرآن حجة لمحمد على مناوئيه من مشركين وكتابيين .

وقد قال بعض العلماء فى ابراهيم : «كان فتى الفتيان، سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان ، وبدنه للنيران ، وولده للقربان ، وماله للضيفان ، وأهله للوديان واقرأ كل ذلك فى القرآن » .

بهذا ونحوه خلد الله ابراهيم : « واذكر فى الـكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » . وكان من مظاهر ذلك أنه ما من مسلم ولا كتابى ولا مشرك الا وهو يقـدس ابراهيم ، وما من مسلم يصلى ليلا أو نهارا فرضا أو نفلا ، الا ويدعو الله فى صـــلاته أن يصلى ويسلم على محمد ، وعلى آله ، كما صلى وسلم على ابراهيم . وهذا هو ابراهيم الذى يأمر الله نبيه أن يذكره لقـــومه ، فيخففوا من حدتهم ، وأن يذكره لنفســه فيتأسى به ، ويهتدى بهديه .

اسلوب ابراهيم فى الدعوة

وتخص سورة مريم جانبا من جوانب ابراهيم هـــو أسلوب الدعوة بالحلم الواسع ، والادب الجم ، الذى من شأنه الاستيلاء على العقل الناد والنفس العازفة ، مع وضوح الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخلل

والفساد : « يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت اني أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » . وهكذا يسلك ابراهيم في دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدة والانكار والتهديد . « لئن لم تنته لارجمنك واهجرني مليا » فيقابل ابراهيم تهديد أبيه بالسلام عليه والدعاء : « سلام عليك سأستغفر لك ربي أنه كان بي حفيا وأعتز لكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى الا أكون بدعاء ربي شقيا » . وهكذا تقف البنوة البارة من الابوة القاسية ، ومن قبل وقفت هذه الابوة الرحيمة مع البنوة العاقة ، دعا نوح ربه لنجاه ولده ، فعاتبه ربه وبين له أنه ليس من أهله ، ولكن للابوة مكانتها ، فلم ينكر الله على ابراهيم سلامه على أبيه ولا دعاءه له ، احتفاظا باحترام البنوة للابوة وان كانت مشركة ضالة . « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . يعتزل ابراهيم اياه وقومه ، ويلقى بنفسه في أحضان ربه ، فيهبه الذرية الصالحة التي تسير في طريقه وتواصل دعوته : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا » .

رسل كرام

ثم تقفي الآيات بذكر موسى وما كان عليه من صفاء النفس واخلاص القلب لله ، وما خصه الله به من المناجاة والتكليم والتقريب : « وقربناه نجيا » ، ثم تذكر

اسماعيل ، وما كان عليه من الصدق مع نفسه ، ومع ربه ومع أسرته التي هي درعه في دعوته ، والصدق حلية الايمان وسبيل النجاح ، وطريق الخير والفلاح .

وتذكر ادريس وما كان فيه من مكانة الصديقية والرفعة عند الله .

وبعد أن تذكر الآيات هؤلاء الرسل كلا بخاصته ، وتشد بذكراهم أزر الرسول في دعوته ، تعود فتجمعهم في اطار من الشرف الالهي ، وتنسبهم جميعا الى آدم . فتربط بينهم برباط الرحم الانساني العام ، كما ربطت الرسالة بينهم برباط الوحي الالهي .

ثم تشير الى الرباط النسبي الخاص بذرية نوح ومن كان معه في السفينة ، والخاص بذرية ابراهيم واسرائيل ، ثم تذكر امتيازهم الديني ومكانتهم الربانية « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا ، اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » .

وبازاء هذه الشجرة الربانية النورانية تضع الآيات شجرة جافة مظلمة ، انحرفت في وجهتها عن سلسلة آبائهم الاولين ، تغلبت عليهم الشهوات ، وسخرتهم الاهواء وأنستهم حق الله ، وسجلت عليهم سوء العاقبة ، ولا نجاة الا لمن عاد اليه رشده فأدرك الحق ، وسلك طريق المرضيين عند الله وأولئك جزاؤهم « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » .

من وصف الجنة

* قال تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » وعد الله فى الآيات السابقة الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات بالجنات ، ثم وصفها بيانا لمكانتها وعلو شأنها بأنها ليست كجنات الدنيا تزول وتفنى ، ويعتريها النقص والذبول ، وانما هى جنات عدن واقامة دائمة ، وبأنها منحة الرحمن لعباده جزاء ايمانهم بها عن طريق الوحى دون رؤية ومعاينة ، وبأنها مطهرة من لغو الدنيا وباطلها ، وأن كل ما فيها غذاء للأرواح ، وسلام وأمان ومشاهدة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وتأكيدا لاستحقاقهم اياها يخلع الله عليها صبغة الميراث الذى يصل الى الانسان بحكم القانون العام الذى لا اختيار له فيه ، وكثيرا ما تستعمل كلمة « الارث » ولا يراد منها الانتقال من مالك سابق الى آخر لاحق ، وانما يراد بها ثمرة العمل والجهود ، وذلك كما يقال : هذا عمل يورث الشرف ، ومعناه يحصله ويخلده . ومن هذا قوله فى جزاء العاملين بالجنة : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » .

ونظرا الى أن أهم أهداف البيان القرآنى تقوية الجانب الروحى ، ولفت النظر الى ما يؤازر التقى فى تحمل أعباء التكاليف ، كان من سنته المفاجأة فى أثناء

* الآيات من ٦٣ الى آخر سورة مريم

الموضوعات الخاصة بما يجدد للقلب نشاطه ، ويجعله على اتصال دائم بربه يستمد منه العون والقوة ، ويطمئن به على حسن معونته ، وبلوغ غايته .

ترى ذلك فى سورة البقرة اذ يفاجىء وهو فى أحكام الطلاق والاسرة بقوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وفى سورة طه اذ يفاجىء - وهو فى حديث يتصل بالناس جميعا - بقوله فى شأن خاص بتلهف الرسول على تلقى الوحى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما » . ومن ذلك قوله فى سورتنا على ألسنة ملائكة الوحى فى شأن نزولهم على النبى صلى الله عليه وسلم وتطمينه على السير فيه الى النهاية : « وما نتنزل الا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا، رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا » .

البعث حق

ثم تنتقل الآيات وترد على حجج المكذبين فى انكار البعث : « ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » . ثم تفرض الآيات وقوع البعث وأنه غير محتاج الى برهان ، وتترك الحديث عن امكانه الى الحديث عما يكون فيه لهؤلاء المنكرين من مشاهد العذاب ، وما يلقون من آلام : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » .

غـرور

ثم تذكر غرور الكفار بدنياهم ، واعتزازهم بأموالهم : وزعمهم أنهم متفوقون بها عن هـــؤلاء المؤمنين الفقراء الذين لا جاه لهم ولا سلطان ، وترد عليهم بذكر اسلافهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا اى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم احسن أثاثا ورئيا » . وترشد الى تمكينهم من ظواهر هذه الحيـــاة ليس الا اغراقـا لهم فى الفتنة والاختبار ، وسيرون عاقبـــة أمرهم وأمر الذين بهم يستهزئون ، سيحصى عليهم كل شىء ، وسيجمعون فى ساحة العدل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا » . « سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » .

زعماء الضلال

ومن عادة الضالين فى كل زمان أن ينتحلوا لهم أئمة وزعماء ، ويصوروهم للناس أن بيدهم عزهم وفلاحهم ، وعن ذلك الطريق يضلون كثيرا من الناس عن سبيل الله . والآيات تؤكد لهـؤلاء وأمثالهم ان هؤلاء الائمة المنتحلين سيتبرءون منهم ويكفرون بعبـــادتهم ، يوم تنكشف الحقائق ، فيحشر المتقون الى الرحمن وفدا . ويساق المجرمون الى جهنم وردا ، ليس لهم من شافع ولا نصير .

ثم تعرج الآيات على زعم باطل ، صوره الوهم الفاسد،

والهوى المتبع لكثير من الطوائف ، فاتخذوه عقيـــــدة يذيعونها وينتقصون الله بها ، ينافحون عنها ، ويفسدون بها فطرة الله التى شهد بها كونه فى تنزيه الله عن الوالد والولد : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الارض وتخر الجبال هدا » .

صورتان

ثم تختم السورة بوضع صورتين متباينتين :

صورة للذين آمنوا وعملوا الصالحات يتجلى فيهـــا ارتباط قلوبهم ، وارتباط قلوب الناس بهم برباط المودة والمحبة : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » .

وصورة للكافرين الجاحدين ، تمزق العداوة فيهـــا ما بينهم من صلات ، وتملأ قلوبهم وقلوب الناس بالتباغض حتى يقضي عليهم بأيديهم ، ويفنى بعضهم بعضا ، فتتم عليهم كلمة الله : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » .

الفصل السادس :

سورة طه
وسورة النمل

سورة طه

الربع الاول :

* وسورة طه من السور المكية الاولى ، وقد نزلت لشد أزر الرسول ، وتقوية روحه ، وعدم التأثر بما يلقى من الكيد والعناد ، ولارشاده الى أن مهمته هى فقط التبليغ والتذكير ، وسينتفع بهذا التذكير من طهرت نفسه وأشرق عليها نور الفطرة الطاهرة من الاهواء وزخارف هذه الحياة ، وانه ليس من مهمته أن يؤمن الناس ، حتى تشقى نفسه ويضيق صدره بكفرهم واعراضهم : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى » .

وبعد أن ترفع عنه تبعة كفرهم ، تطمئنه على نجاح دعوته ، من جهة أنها دعوة القوى القادر الذى خلق الارض والسموات وبسط سلطانه بالرحمة على خلقه ، ونفذ تدبيره الى بواطن ما خلق ، واكتنه علمه سر القلوب واحساسها .

---

* الآيات من ١ الى نهاية الآية ٤٧ من سورة طه

ثم تجمل له أوصاف الجلال والجمال فى كلمة التبليغ التى أمر بدعوة الناس اليها وتذكيرهم بها : « الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى » .

ثم تقص عليه ، تطمينا وتسلية ، نبأ أخيه موسى وقد أرسل بما أرسل به وقوبل بأشد مما قوبل به ، فصبر وكانت له عاقبة الصابرين . وكما تذكر له قصة الصبر على مكايد القوم ، ونتيجته فى موسى ، تذكر له قصة التسرع والتأثر بالمغريات فى آدم ، وما لحقه بعدم الثبات والعزم ، وبذلك عالجت السورة رسول الله من الناحية الايجابية التى يريد الله أن يتحلى بها فى دعوته وهى الصبر ، وعالجته من الناحية السلبية التى يريد الله أن يعصم نفسه منها وهى الحزن وعدم الثبات .

ثم تختتم باجمال المبادىء التى تملأ قلبه بالصبر والوثوق بحسن العاقبة ، فتأمره بالصبر على ما يقولون، وبتنزيه الله وتذكره الاعتماد عليه . وتحذره أن يمد عينه الى متعة الكافرين من زهرة الحياة الدنيا ، وتأمره بتزكية أهله وتوجيههم لعبادة الله وحده ليكونوا عونا على أداء مهمته كما كان هرون عونا لموسى .

ثم تنزع من نفسه خيال الحاجة الى الرزق وتكله الى الله المنعم الذى تكفل بحاجته ورزقه : « ورزق بك خير وابقى » « نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » ثم بعد أن تزوده السور بالاسلحة التى يبدد بها خواطر الضيق والحرج ، تغرس فى نفسه كلمة الواثق من نفسه ، ومن دعوته ، ومن عاقبته : « قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

معنى الشقاء هنا

تلك سورة طه ، ومن هذا العرض الوجيز يتضح ان الشقاء المذكور فى قوله : « لتشقى » ليس هو الشقاء الجسمانى الذى نشأ من طول اقامته فى التهجد على احدى قدميه حتى تورمت ، وان « طه » ليست نداء له بمعنى يا رجل ، أو فعلا يأمره بأن يطا الارض بقدميه ، ليس شيء من ذلك كما تريد أن تفسره الروايات ، وليس من السهل — والرسول يعـرف دين الله ويسره — أن يقبل شيء من هذا . كما انه لم يعهد فى القرآن الكريم نداؤه صلى الله عليه وسلم باسمه العلم ، فكيف ينادى بأعم العناوين كيا رجل ؟ ثم كيف يقبل هذا وذاك وليس فى السورة شيء يتصل بقيامه فى عبادته على قـدميه أو على احداهما ، فالشقاء هو الشقاء النفسى الذى تولت السورة من أولها الى آخرها علاجه .

و « طه » هى كاخواتها ، حرفان من حروف التهجى التى افتتح بها كثير من السـور التى عرضت للتنزيل ومصدره وفائدته للناس ، وقد خوطب النبى بعدد غيرها من تلك الحروف ولم يكن الخطاب دليلا على ان الكلمة نداء له أو أمر له بمعناها : « المص كتـاب أنزل اليك » « الر كتاب أنزلناه اليك » هذا هو الحق ، وللروايات أن تجول وتصول فى كتب التفسير ، ولكن الله منزل الكتاب حافظه وحارسه .

قصة موسى

وقد قصت السورة من قصة موسى اختياره لتحمل

الرسالة ، وأجملتها فى التوحيد والعبادة والبعث « وأنا اخترتك ، فاستمع لمـــا يوحى » وذكرت السلاح الذى منحه الله اياه فى الدعوة ودربه عليه وهو العصا واليد البيضاء ، وذكرت أمره بالتوجه الى فرعون الذى طغى ، وذكرت ان موسى فى سبيل تحمل الرسالة طلب الى ربه أن يقوى قلبه وان يسهل له أمره وأن يمنحه لسانا بينا ، وأن يجعل له وزيرا صادقا ، وتلك عدة الداعى فى دعوته ، وان الله أجاب موسى الى ما طلب ، وذكره بكفالته اياه من عهد المهد الى مراحل الاعداد والتنفيذ . « اذهب انت وأخوك بآياتى ، ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى » وهذا ارشاد الى طريق النجاح فى الدعوة ، قد سلكه ابراهيم من قبل ، وأمر به محمد من بعد : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . وقد أثار علم موسى بطغيان فرعون وشدته الخوف فى نفسه بعدم نجاحه ، فنلقى عليه تلك الكلمة التى تقتلع جبال الخوف الراسخة عروقها فى جـــوف البحار « لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى » فيمتلىء موسى ايمانا بمعية الله وحضانته ، ويتلقى من ربه مرة أخرى « فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنـــا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » .

الربع الثانى :

* وفيه يوجه موسى وهارون الانذار الالهى لفرعون

★ لآيات من ٤٨ الى نهاية الآية ٨٢ من سورة طه

وقومه ، ولم تشأ الحكمة الالهية أن يوجه الاخذ بالعذاب الى شـــخص فرعون اذا كذب وتولى ، وانما ربطه بالتكذيب والتولى كيفما كان ، ومن أى انسان كان ، وفيه تنبيه على ما يغضب الله ، وتلطف بالغ فى توجيه الانذار .

اسئلة واجوبة

وقد سألهما فرعون عن ربهما صـــاحب الوحى : ومصدر الانذار ، وسألهما عن القرون الاولى وما تم فى شأنها ، اختبارا لعلمهما ، وكأنه ظن أن الاحاطة بشئون الماضين من لوازم ادعاء الوحى والرسالة ، وقـد أجابه موسى عن السؤال الاول بآثار الربوبية التى تنطق بهـا الفطر وتشهد بها الكائنات والنعم : « ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى » اعطى كل شىء الوضع والشكل الذى به تتحقق فائدته ، ثم أودع فيه القوة التى توجهه نحو تلك الفائدة . وكان جواب السؤال الثانى ان شئون القرون الاولى ليس علمها من خصائص النبوة والرسالة ، فنحن بشر لا نعلم الا ما علمنا الله ، وانما هو من خصائصه سبحانه وتعالى فان شاء اعلمنا بها وان شاء امسكها عنا : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » .

وجوب النظر فى الآيات

ثم يذكر موسى لفرعون بعض الآثار البارزة للقـدرة الالهية ، التى يجدر بفرعون أن ينظر اليها ، وان يتعرف

حقيقتها ومنشأها وانعام الله بها عليه وعلى الناس : « الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » تبصرهم بالرب وترشدهم الى جلاله وعظمته ، وتدفعهم الى الايمان به ، هذا هو الجدير بالنظر فيه .

أشياء لا يفيد السؤال عنها

اما السؤال عن القرون الاولى فما فائدته ، وقد عميت الابصار عن النعم الحاضرة ، والآثار البارزة ، وفيه ان شأن أولى النهى والعقول ألا يتركوا البحث والنظر فيما ينفع ويفيد الى البحث والسؤال عما استأثر الله بعلمه ودخل فى سر غيبه ، كحقيقة الشيطان وعلى أى شكل هو ؟ وكيف يدخل فى جسم الانسان ؟ وكيف يوسوس له ؟ . وعن الجنة : ما مادتها ؟ ما سعتها ؟ ما أرضها ، ما سماؤها ؟ وما الى ذلك مما يترك به الانسان الجاد النافع الى ما لا يضر ولا ينفع . ثم لا يفوت موسى ان يذكر فرعون بالمبدأ والموت والبعث ، رجاء أن تهزه تلك الاطوار التى تمر بالانسان فتخفض من كبريائه : « منها خلقناكم، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

لجاج وحجاج

وامام روعة الادلة التى يرشد موسى اليها لا يملك فرعون الا أن ترتعد نفسه ، فلا يجد الا جواب المبهوب

الذى يعرف بما لا يكون : « اجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » . ومتى ، واين ، وكيف عرف ان الساحر يقدر على أن يخرج بسحره مثل فرعون وهو يزعم انه الرب الاعلى ؟ اللهم ان هى الا لجلجة الباطل ، وخذلان الافتراء .

بين موسى والسحرة

وينتقل فرعون الى توعد موسى بسحرة مثله ، ويتفق معه على يوم العرض الذى يجتمع فيه موسى بالسحرة، ويبذل فرعون أقصى جهده فى جمع السحرة ، ويلتقى موسى بهم ، فيقول لهم فى أنفسهم قولا بليغا ، قياما بواجب الارشاد والتبليغ ، « ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » ويتركهم موسى بعد نصحهم يتنازعون ويتشاورون ، واخيرا جمعوا كيدهم وتواصوا فيما بينهم وقالوا : « ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » . ثم يقبلون على موسى ويخيرونه بين أن يتقدم أو يتقدموا ، فيشير عليهم بالتقدم : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى» فيوجس موسى فى نفسه خيفة والانسان مهما بلغ من الايمان فانه يرى ان العاقبة بيد علام الغيوب فيطمئنه الله على موقفه : « لا تخف انك أنت الأعلى » ويلقى موسى عصاه فتلقف ما صنعوا ، وهنا دعوة موسى فلا يملكون سوى أن يخروا سجدا : « آمنا برب هرون وموسى » . فتأخذ فرعون دهشة الحق ، ويتوعدهم بلجلجة الباطل : « آمنتم

له قبل ان آذن لكم أنه لكبيركم الذى علمكم السحر »
فيعتصمون بسلطان الحق ويشرف عليهم نوره، ولا يعبئون
بتهديده ، شأن العلماء الواثقين بعلمهم « لن نؤثرك على
ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض
انما تقضي هذه الحياة الدنيا » . وستلقى جزاءك ،
ولا يفوتهم ان يقرروا على مسمعه الحقيقة المقبلة التى
أدركوها بعلمهم .. الفرق بين ما صنعوا وما ظهر على
يد موسى : « انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت
فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات
فأولئك لهم الدرجات العلى » .

علم نافع وعلم ضار

وهكذا تكون نتيجة العلم الحق . أما العلم الذى
لا يصل بصاحبه الى كبد الحقيقة ، ولا يرفعه عن
مستوى المجرمين الذين ينكرون الحق ، فجدير به أن
يكون جهلا وعمى لا علما ونورا . وهكذا اتضح الحق
لسحرة فرعون بعلمهم الحق ، واشتد غيظ فرعون وشدد
عليهم وعلى المؤمنين الخناق ، فيوحى الله الى موسى ،
انقاذا لقومه ، وابقاء على دينهم باجتياز البحر : « ان
أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف
دركا ولا تخشى » . وهكذا يمد الله أولياءه بما يرد كيد
الاعداء . ولغرور الضالين طغيان يدفعهم الى الدمار
والتهلكة ، ومن ذلك يلقى فرعون بنفسه وجنوده خلف
موسى ومن معه « فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل
فرعون قومه وما هدى » وكذلك تكون القيادة الطاغية

والزعامة الضالة تودى بأمنها الى مكان سحيق .

قتل الانسان ما أكفره . ينقذ الله بنى اسرائيل على يد موسى ، ويرفعهم من الذل الذى كانوا فيه ، ولكن يعاودهم سوء التربية والنشأة ، ولا تقبل نفوسهم العزة فتمردوا على موسى الذى جاهد فى سبيلهم حتى أنجاهم وأعزهم ، والآيات تذكرهم بتلك النعمة ، علهم يخففون من شدتهم ويثوبون الى رشدهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » ثم ترشد الى سنة الله فى العفو والمغفرة مهما تضخمت الذنوب ، وعظمت الآثام والجرائم ، ترغيبا للعباد فى الخير ، وتطهيرا لهم من الشر : « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

سورة النمل

الربع الاخير *

* هذا هو الربع الاخير من سورة النمل ، وسورة النمل من السور المكية التي عالجت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث ، وهي احدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية : وهي سورة الشعراء ، وسورة النمل ، وسورة القصص واشتركت ثلاثتها في المنهاج ، بدأت كل منها فنوهت بشأن الكتاب وما تضمنه من ارشاد وهداية ، ثم سلكت مسلك العظة والعبرة عن طريق القصص الذى يوضح سنة الله في معاملة المكذبين الاولين ، وعن طريق لفت الانظار الى آثار القدرة الباهرة التي لا يعجزها شيء في الارض ولا في السماء ، وعن طريق التحدث عن الاحوال والمشاهد الهولية التي يصيرون اليها أو تصير اليهم يوم البعث والجزاء . وهو حديث اليها أو تصير اليها يوم البعث والجزاء .

وقد عرضت سورتنا فيما يختص بجانب البعث الى

---

* تقدمة الآيات ٨٢ الى آخر سورة النمل

انكار القوم له وسخريتهم به حتى قالوا « أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين » وحتى قالوا : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وفى سبيل الرد عليهم ذكرتهم بعاقبة أسلافهم الذين كذبوا بالبعث « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين »، وأرشدت الرسول عليه السلام أن ينذرهم بمشارفة بعض أنواع العذاب الذى يستعجلونه ، وانهم سيرونه قريبا فى الدنيا بأيديهم وأيدى المؤمنين . وان ارجاءه انتظارا لايمانهم لمن فضل الله عليهم وهو عالم بما تكنه صدورهم، ومحيط بكل غائبة ، وأنه سيقضى بينهم بحكمة فلا يضيق صدرك يا محمد بأعراضهم . « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » . ثم تشير الآيات الى ما يصيبهم من العذاب الاكبر الذى أعد لهم فى الآخرة .

وفى هذا تذكر بعض العلامات الدالة على قرب وقوعه، وان دابة لها من غرابة الشأن ما لها ستخرج لهم من الارض تنطق بالحق الذى أنكروه . وان الناس أعرضوا وضلوا عن آيات ربهم ، وقد تكلم الناس كثيرا فى شأن هذه الدابة وأسرفوا حتى قيل : انها ولد ناقة صالح فر الى حجر فتح له فاه حينما عقر القوم أمه فدخله فهو فيه حتى يخرج علامة من علامات الساعة وماذا علينا لو وقفنا فى حديثنا عن المغيبات عند القدر الذى أخبر به القرآن ، ثم تركنا ما وراءه من التفصيل الى اليوم الذى يأتى فيه تأويله وبيانه ، وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد ، وانما هو انذار ووعيد وتهديد .

فلنقف عند حد العبرة ، ولا نخض فيما استأثر الله بعلمه « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » .

ثم تسوق الآيات بعد هذه العلامة ، بعض الاهوال والمشاهد التى يراها الظـــالمون فى هذا اليوم : حشر لآخرهم على أولهم ، وفزع واضطراب يزلزل كل ثابت . ويقطع ما بين أجزائه من صلات « ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى اذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علمــا أم ماذا كنتم تعملون » « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين » ومعناه : « صاغرين » « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء » . وهنا أيضا تكلم الناس عن « الصور » فأخذوا يشرحونه ويصفونه ، وتكلموا عمن يحمله ، وعن عدد النفخات ، أهى ثنتان ، أم ثلاث ، أم أربع ، وعن أثر كل نفخة فى الكون وعن الذين يسلمون من الفزع المقصودين بقوله : « الا من شاء الله » تكلموا فى كل ذلك بما لا يتوقف عليه فهم العبرة ولا معرفة الهدف .

وواضح ان فعلا من الله يصدر عن قـدرته النـافذة يقضى على هذه الحياة ، ويخرجها عن نظامها ، ويسلم أهلها الى حياة أخرى ذات نعيم دائم أو عذاب أليم .

ثم أرشـدت الآيات الى أن المكلفين أمام شرع الله

ودينه ، أما محسن فله خير من حسنته ، وأما مسيء فعاقبته الخزى والنكال « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » ثم تختم السورة بهذه الوصية البالغة التى ترسم للنبى طريقه الذى يلزمه ، غير ضائق صدره بكفرهم ، وأن هدايتهم لا تنفع أحدا سواهم ؛ وترشده الى تعرف نعم الله والمداومة على شكرها بحمده . وان يكل القوم فى كفرهم وعنادهم اليه سبحانه وسيظهر الله خزيهم يوم يرون بأعينهم ما كانوا به يستهزئون : « قل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » .

الفصل التاسع :

سورة القصص
سورة العنكبوت
سورة غافر

سورة القصص

الربع الاول :

* سورة القصص ثالثة سور ثلاث نزلت متتالية ، كما وضعت فى المصحف متتالية ، الثلاث سور تتفق فى منهجها وهدفها كما اتفقت فى جو نزولها ، وقد لوحظ ان اللاحقة منها تكمل أو تفصل ما اختزلت السابقة او اجملت ، ولعل ما ذكرته سورة القصص فى قصة موسى وفرعون يتضح فى كثير منه أنه تتميم أو بيان لما أجمل فيها في السورتين قبلها .

تسمية السورة

وعلى كل فهذه السورة هى السورة الوحيدة التى انفردت بحديث موسى عن نفسه وعن سبب هجرته من مصر الى مدين ، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من

★ الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٨ من سورة القصص

القوم الظالمين » ، فهو قصص موسى ، وهو فى مصر مع المصريين ، وليس قصصه مع فرعون وقومه ولعل هذا القصص الخاص هو الوجه فى تسمية السورة«القصص» وقد كانت حياة موسى من يوم أن ولد سلسلة ذات حلقات متصلة من غرائب الاحداث ، تتجلى فيها ـ أولا وقبل كل شيء ـ رهبة الطغاة من كل ما يتخيلون ان فيه زعزعة ملكهم ، والقضاء على سـلطانهم الذى يسخرون به الضعفاء ويسومونهم به سوء العذاب .

فرعون مرعوب

فها هو ذا فرعون يعلو فى الارض ، يظلم ويستبد ، ويتخذ من رعيته سيوفا يضرب بعضها بعضا ، وتلك عادة الطغيان فى كل زمان ومكان ، الرغبة تتماسك وتتحاب ، خوفا من تكتلها على ازالة سلطانه والقضاء على غطرسته وقد كان من اثر تلك الرهبة أن أوحى الى فرعون من بعض شياطينه أن وليدا يولد فى بنى اسرائيل يكون زوال الملك على يديه ، فيطير لب فرعون ويصـدر أوامره الظالمة الغاشمة بذبح ذكور المواليد ، ويبعث عسسه ، ويبث عيونه لتعرف المواليد وتنفذ الامر فيهم كى يطمئن على عرشه وسلطانه ويولد موسى ، وتتلقاه قابلة فرعونية فيتولى الله رعايته بما يرد على فرعون كيده فيه وطغيانه عليه ، ولا يزال رب موسى يرعى موسى حتى يعده لما يريد من زعزعة الجبروت واذابة الطغيان ، والنهوض بالمستضعفين الى مصاف الزعمـاء والقواد المصلحين والانبياء المرسلين : « ان فرعون علا في الارض وجعل

أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوراثين ونمكن لهم فى الارض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وهكذا سنة الله فى الطغاة الظالمين مع الضعفاء العاملين المخلصين ، رأيناها فى فرعون وموسى ورأيناها فى محمد واصحابه، ورأيناها فى كثير من الازمنة وكثير من الامكنة . وحياتنا الحاضرة أكبر شاهد وأوضح مثال ، فهى سنة مطردة يعامل الله بها كل من حاد عن طريقه وطغى وبغى واخذ بالناس عن طريق الهدى والرشاد .

موسى الوليد

ولد موسى ونمى خبره الى فرعون واضطرب فؤاد امه عليه ، فألهمها الله وسيلة الحفظ والرعاية ، وطمأنها وبشرها : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » تحمل أمواج البحر موسى حتى تقف به على باب فرعون وأهله فينشرح لمنظره صدر زوجه وتوصى بالمحافظة عليه « قرة عين لى ولك لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

من عجائب الاقدار

ومن عجائب الاقدار ان الله نجى موسى بالبحر من فرعون ، واغرق فى البحر فرعون على يد موسى ومغزى

هذا ان الله يعد للظالم قذيفة من صنع يده ، وانه يتخذ للظالم مقبرته التى تواريه مما كان يعير به فرعون موسى. فكان موسى قذيفـــة أطاحت بفرعون وعرشه ، وتعاظم فرعون بالانهار تجرى من تحته فابتلعته البحار ، وفى هذا أكبر عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وصدق وعد الله مع أم موسى ، فرده اليها واحتضنته وهــو ولدها ، ورعاه الله حتى نبت فى بيت فرعون كريحانة زكية تنبت فى تربة مليئة بالاشواك والاقذار ، فيعمل جهده على ازالتها والقضاء عليها ، ويتعرف بأبناء النبوة وسلالة الاخيار ويربط الايمــــان بينه وبينهم ويعرفون فيه الملجـــأ عند الشدائد ، ويستنصرونه فى كربهم فينصرهم ، حتى كان ما كان : « فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان أنه عدو مضل مبين » .

ويتلقى موسى نبأ ائتمار القوم به فيخرج من المدينة خائفا يترقب ملتجئا الى الله أن يهديه سبيل مدين وأن ينقذه من القوم الظالمين .

خبر موسى وابنتى مدين

يصل موسى الى مدين فيجد امراتين معهما انعـــام تريدان سقيها ولكن يمنعهما الحياء والضعف عن مزاحمة الساقين فيتقدم اليهما ويسقى لهما . فيذهبان الى أبيهم ويخبرانه خبره ، فيرسل اليه احداهما ، « ان أبى يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليــــه

القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . يطمئن موسى الى مضيفه الشيخ الذى أكـرم منزله وأحسن مثواه ، ويرى الشيخ على موسى دلائل النبل والامانة فيعرض عليه مصاهرته اياه فى احدى ابنتيه ، على أن يرعى غنمه ثمانى سنوات أو عشرا ، فيقبل موسى ذلك العرض ويتم الاتفاق ويحصل القران « ذلك بينى وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » .

الربع الثاني :

* وفيه ان موسى عليه السلام وفى الشيخ الكبير بما التزم فى رعى الغنم ، ثم ارتحل بزوجه التى عرفهـا بالاستحياء ، وعرفته بالقوة والامانة ، وكانت سـكنه وشريكته فى تلكم الرحلة الميمونة التى تلقى فيها رسالة الهدى والصلاح ، رسالة انقاذ المستضعفين من ضغط الطغاة الجبارين .

تكليف موسى بالرسالة

وهنا تذكر الآيات كيف وجه موسى الى مكان المناجاة الذى اختاره الله ليلقى عليه فيه نداء التكليف بالرسالة الى فرعون . يرى موسى نارا فيتوجه اليها ملتمسا دفئا بدنيا أو هاديا بشريا . فيرى النور الذى لا يلحقه ظلام ،

★ الآيات من ٢٩ الى نهاية الآية ٥٠ من سورة القصص

ويسمع الهداية التى لا يعتريها ضلال ، يسمع نداء ربه : « يا موسى انى أنا الله رب العالمين » ، ويدربه ربه وهو بين يديه على عدته التى يعتمد عليها فى دعوته . يدربه على العصا يلقيها فتهتز كأنها جان ، ويدربه على اليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء « فذانك برهانان من ربى الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين» يتلقى موسى أمر ربه ويذكر انه قتل منهم نفسا ويخاف ان يقتلوه ، ويطلب من ربه أن يشد أزره بأخيه ، ويجيبه الله الى طلبه « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن أتبعكما الغالبون » .

عناد فرعون وقومه

يصل موسى الى فرعون ويبلغه رسالة ربه فيسخر فرعون منه ويأخذه الكبر والجبروت ويهزأ بالدعوة « ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين » ، ويلقى على قومه حجاب التضليل : « يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » ويشتد طغيانه ، فيهزأ حتى بالله رب العالمين « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى » .

سنة الله مع اعدائه

استكبر فرعون وجنوده بغير الحق وكانت العاقبة كما صور الله « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وهكذا كانت سنة الله مع أعداء

الله ، يجعلهم فى الدنيا أئمة يدعون الى النار ثم لا يسلمون منها من كيد الله ومكره ، ويوم القيامة لا ينصرون ، وهكذا سنته مع أوليائه دعاة الحق ، يجعلهم كما وعد أئمة فى الهدى ويجعلهم الوارثين : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » . تلك قصة موسى مع فرعون وملئه ، أوحاها بجميع أطوارها الى محمد عليه الصلاة والسلام وفى كل طور منها أبلغ العظات والعبر لقوم يذكرون ، ثم قصها محمد على أهل مكة . وموقفهم منه عليه السلام هو موقف فرعون من موسى ، وخلدها الله فى كتابه لتكون العظة أتم والعبرة أشمل ، يطمئن بها فى كل زمان دعاة الحق على دعوتهم ، ويأخذ منهـا الضالون المفسدون ما يردهم عن طغيانهم ويبصرهم بسنة الله مع اسلافهم .

انباء أوحى بها الله

يقص الله على محمد قصة موسى . ثم يوجه اليه الخطاب بما يقطع شك النفوس فى أنه يبلغ عن نفسه ، فيذكر له انك تقص عليهم هذا القصص وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلقى عنهم نبأ موسى فى سن الانعام ولا نبأه فى الزواج ، ونبـأه فى الاجلين . تقص عليهم هـذا القصص وما كنت مع موسى اذ ناداه ربه وحمله الرسالة، ولكنها أحداث وقعت وتطاول عليهـا الزمن حتى نسى الناس رسالة ربهم وعادوا الى حلف فرعون واستكباره ، فأرسلناك اليهم تجدد لهم عهدنا وتذكرهم بآياتنا وتقص

عليهم أنباء المكذبين من قبل ، لئلا تكون لهم علينا حجة لئلا يقولوا : « لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » . فبك أبطلنا حجتهم وقطعنا أعذارهم فقابلوك بما قابل به فرعون موسى ، وكانت قضية العقل تقضي عليهم بالايمان والتسليم . ولكن توارث الضلال شأن الضالين المضلين .

والحق لا يسلم من باطل يحاول تزييفه ، واطفاء حرارته في النفوس ، فقابلوا محمدا بما قابل به فرعون موسى وانكروا عليه حجته وقالوا : « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » . فهل آمنوا بما أتى به موسى ؟ أو لم يكفروا به من قبل ألم يقولوا عن موسى وأخيه : « سحران أو ساحران تظاهرا ، انا بكل كافرون » فهؤلاء من أولئك .

ومسلك أهل الضلال واحد ، وحجتهم الزائفة واحدة تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم . انكر أسلافهم دعوة موسى وأخيه . وأنكروا هم دعوة محمد وهما دعوة واحدة وهديهما واحد فهل لهم ان كانوا طلاب حق وهداية أن يأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما ؟ اما أن يكذبوا دون أن يقدموا حجة أو يأتوا بخير وهداية ، فهذا ليس منطق العقل ، ولا منطق الحكمة ، وانما هو خداع الهوى وسلطان الضلال : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين » .

الربع الثالث :

استمرار الجحود بعد تتابع الحجج

(*) نوع الله لاهل مكة اسـاليب الدعوة ، والوان العظة والاعتبار ، نبه عقولهم للنظر فى آثار قدرته ولفتهم لتدبر سنته ، وكشف لهم عما أعد من عـذاب مقيم ، وخاتمة سيئة للمكذبين المفسدين ، واتبع القول فى ذلك كله بعضه ببعض ، ووافاهم بحججه وأمثاله منجما ، ليطلعوا كل يوم على حجة فيتدبروها ويعقلوها ، عظة بعد عظة ، وعبرة بعـد عبرة . ومع هذا لم يؤمنـوا بل ظلوا على على الاعراض والتكذيب ، ولو كانوا طلاب حق لـكان لهم من توصيل القـول ، وتصريف الآيات ما أنار لهم السبيل ، وأوضح أمامهم الطريق ، فلا تبتئس يا محمد بكفرهم واستمرار كيدهم وحسبك فى حقبة دعوتك ان الذين تلقوا دعوة الله من قبل ، وآمنوا بكتبه السابقة ، فأشرقت قلوبهم بنور الحق ، يدركون حقيتها وانهـا تلتقى مع دعوة اخوانك السابقين ، ويؤمنون بها كمـا آمنوا بما أنزل من قبلك : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » .

★ الآيات من ٥١ الى نهاية الآية ٧٥ من سورة القصص

ثناء وجزاء

وهنا تعرض الآيات لجزاء هؤلاء الذين سلمت فطرهم ولم تفسدها العصبيات الضالة ، كما تعرض لاوصافهم التى استحقوا بها ذلك الجزاء العظيم ، فتذكر صبرهم فى مواقف الدعوة الى الحق ، وتذكر حلمهم واحسانهم لمصدر اساءتهم ، وتذكر سخاءهم وانفاقهم فى سبيل الله ، وتذكر ترفعهم بأنفسهم عن مجاراة السفهاء واعراضهم عن خطتهم والسير فى طريقهم ، والاختلاط بهم : « واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » . فتلك سنة المؤمنين السابقين ، فاستقم انت ومن آمن معك عليها ، ولا يحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ان ايمانهم ليس مطلوبا منك ، ولا تابعا لرغبتك ، وانما هو تابع لما يعلمه الله فى أنفسهم من طهر وصفاء ، وبه فقط تتحقق هدايتهم ، وبه يتوجهون الى الايمان : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » . كان القوم يعتذرون عن عدم ايمانهم بالخوف من أقوامهم يفتكون بهم ويقضون عليهم ان هم آمنوا بمحمد ودعوته : « ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ومعناه انهم يصيرون اتباعا بعد أن كانوا متبوعين ، ويجردون من سلطانهم بعد ان كانوا ذوى سلطان مرهوب ، فترد عليهم الآيات بأن هذه حجة مهلهلة وخيال كاذب ، ووهم باطل ، فالله الذى مكن لهم من حرم يأمن فيه الخائف ، ويشبع فيه الجائع ، ويجبى اليه الثمرات لا يعجزه أن يحفظهم

وأن يمكن لهم ضد من يناوئهم ، ولو انهم انصفوا لعرفوا ان استمرارهم على الكفر ورد الحق وانكاره سبيل سنة الله لتسليط دعاة الحق عليهم وتمكينهم منهم : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » .

ثم ترشدهم الآيات الى ان ما هم فيه من جاه ومال وسلطان مآله الى الزوال ، وانه لا يدفع عنهم شيئا من قضاء الله : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون » . ثم تضع الآيات أمامهم صورتين متقابلتين ، وتحكمهم في أى الصورتين خير الى عقولهم وضمائرهم ، صورة الذين يلبون دعوة الحق وبه يؤمنون وصورة الذين يرفضونها وبه يكفرون . « أفمن وعدنا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » .

ثم تذكرهم بما سيكون يوم القيامة بينهم وبين شركائهم من محاولة تخلص بعضهم من بعض ، وتبرؤ متبوعيهم من تابعيهم ، وبما سيكون منهم حين يسألون عن موقفهم من الرسل . فتتملكهم الحيرة وتلزمهم الحجة : « ربنا هؤلاء الذين اغوينا ، اغويناهم كما غوينا» أى لم يكن لنا سلطان في غيهم وانما عرضنا عليهم ان يغووا باختيارهم كما غوينا . « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الانباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون » .

النبوة شأن من شئون الله

وكان القوم يستنكرون أن ينزل الوحى على رجل

فقير يتيم من بينهم وقالوا « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القـــريتين عظيم » ، فترد عليهم الآيات بأن الاصطفاء للنبوة كالخلق ، شأنان من الشئون الخاصة بالله . فكمـــا لا يخلق الا بمشيئته ، لا يصطفى الا بمشيئته ، فهو وحده العليم باستعداد خلقه وصلاحيتهم لما يريد : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .

ثم تعود الآيات وتذكرهم بنعم الله عليهم ، ورحمته بهم فى تنظيم الليل والنهار على وجه يمكنهم من طيب الحياة . وتحاكمهم الى الفطرة فى الاعتراف بأن لا قدرة لاحد سواه فى ذلك التنظيم اذ هو جعل الليل أو النهار سرمدا : « من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟ . من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ » فان استجابوا للحجة فقد آمنوا والا فقد عرضوا انفسهم ليوم لا تنفعهم فيه شفاعة الشافعين ، ويضل عنهم ما كانوا يفترون .

الربع الرابع :

علاج لنزعات الشر

* يعتز الناس فى دنياهم بمـــا لهم من جاه ومال وسلطان ، وكثيرا ما تصرفهم نعم الله عليهم الى البطر ، تدفعهم الى الطغيان ، وتقطع ما بينهم وبين الله من صلات ، فينكرون الحق ، ويتزعمون عصـــابات الشر

★ الآية من ٧٦ الى آخر سورة القصص

والفســـــاد ، وكثيرا ما عالج القرآن هذه النزعة فى الانسان : فنبه بقصصه الى عاقبة الطغيان والبطر ، والى ان الجاه مهما عظم ، والمال مهما كثر ، والسلطان مهما اتسع ، فانه لا يرد عن صاحبه شيئا من قضاء الله اذا هو استمر على طغيانه ، وبطره ، وانه لا ينبغى لعاقل أن يغتر ببسمة الدنيا ، فانها كما يقال : خداعة غرارة ، وانه لا نجاة من خداعها الا بالايمان والتقوى والعمـــل الصالح .

قارون وأمواله

بهذا مضت سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وفى سبيل تقرير هذه السنة يقص الله علينا أمر قارون : كان من قوم موسى ، ولكنه لم يحفظ للقرابة حقها ، بل بغى وتكبر ، واتخذ نعم الله سبيلا لكيد عباد الله . أنعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه ، أو حمل مفاتحه ، ونسى حق الله فى ذلك المال ، واعتقد طغيانا وكفرا انه من سعيه وكده ، وانه ســيق اليه باستحقاق ذاتى ، واعانه عليه حسن تدبيره ، ونفاذ أمره وسلطانه .

وقد حاول عقلاء قومه ارشاده ونصحه وتذكيره بأن الدنيا لا يصح الاطمئنان اليها ، وان أحوالها فى تغير وتقلب ، وانه لا عاصم من شرها الا الايمان بالحق ، والعمل الصالح ، وان سعادة الانسان انمـا هى فى أن يتخذ من يومه لغده ، ومن دنياه لآخرته . قدم له عقلاء قومه ما استطاعوا من نصح وتذكير ، ولكن ران على قلبه ما امتلأ به من ضلال وطغيان فأهمل مواعظهم ،

وخرج بطرا فى زينته ، فاغتر به ضعاف العقول ، وتمنوا ان ينالوا مكانته . ولكن العقلاء ، الذين يقدرون الدنيا قدرها ، ويدركون منهـا ما لا يدرك غيرهم ، أخـذوا يؤنبونهم على هذا التمنى ، ويؤكدون لهم ان ما وراء هذه المظاهر الفاتنة ما هو اسمى منها ، وهو معرفة حق الله فى نعمه وان للبغى من العواقب ما يجدر بالعاقل ان يقدره ، وان يدخله فى حسابه ، وقد صـدقتهم العواقب فلم ينفع قارون ماله ولا جاهه ولا سلطانه ، وما هى الا دوره فلكية حتى كان قارون ومظاهر دنياه فى طى صحائف الماضي : « فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئـة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا ان من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون » .

حول زينة قارون

وقد ساق المفسرون كلاما كثيرا فى وصف زينة قارون، وكيفية خسف الارض به ، وحسبنا فيها ما تدل عليه كلمة « زينة » بالنسبة لما عهد فى مظاهر ارباب الجاه والمال ، وما تدل عليه كلمة « فخسفنا به وبداره الارض»، من زوال النعمة وانتزاع الملك والسلطان ، والذلة بعد العزة . ويعجبنى قول الامام الرازى فى هذا المقـام : « والذى عندى فى أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة، وانها فى أكثر الامر متعارضة مضطربة ، فالاولى طرحها، والاكتفاء بما دل عليـه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب » .

وأرجو أن ننهج فى تفسير كتاب الله هذا المنهج الدقيق الذى يحفظ علينا وعلى الناس ايماننا بجلال معانى القرآن وقصصه الحق الذى لا ريب فيه .

قص الله علينا فى السورة قصة فرعون ، وكيف كانت عاقبة علوه وافساده ، وقص علينا قصة قارون ، وكيف كانت عاقبة بغيه وتكبره ، وكلها سنن مطردة فى معاملة الله للمتكبرين المفسدين . ثم ختمت السورة بالارشاد الى أساس الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة: « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .

تربية

شأنان لابد من تربية النفوس عليهما حتى تحظى بالسعادة عند الله : تطهير النفس من ارادة الظلم والافساد فى الارض ، واتقاء ما يغضب الله من اهمال احكامه وشرائعه ، واهمال سنته ونظمه ، وقد نبه القرآن كثيرا على أوصاف المتقين ، الذين ضمن الله لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة ، فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتكون التقوى فى النفوس ، وكيف تبدو آثارها فى نفع البلاد والعباد .

منزلة الرسول عليه السلام

انتقلت الآيات بعد ذلك الى شأن خاص بالرسول ، فطمأنته على المنزلة الخاصة والدرجة العالية التى أعدها الله له ، بما فرض عليه من تبليغ القرآن وبيان أحكامه ،

والتى لا ينالها أحد سواه : « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » . وبقدر ما يتعلق اتباع محمد بالقرآن يكون لهم من ذلك المعاد وتلك المنزلة . ثم يلفت نظره الى ان انزال هذا الكتاب اليه وتخصيصه به ، ومن رحمته بعباده ، فتمسك به يا محمد ، ولا تكونن ظهيرا للكافرين . وادع الى ربك ، ولا تكونن من المشركين . « ولا تدع مع الله الها آخر ، لا اله الا هو ، كل شيء هالك الاوجهه له الحكم واليه ترجعون » .

ســــورة العنكبوت

الربع الاول :

الناس أمام الدعوات الجديدة

* من شـــأن كل دعــوة جديدة دينية كانت أم سياسية ، ان تجد لها في الجماعة البشرية من يتقبلها ويؤمن بهـا ، ويضحى بنفسه وماله فى سبيل نشرها وتركيزها واقناع الناس بها ،وان تجد بازاء من يؤمن بها من ينكرها ويكفر بها ، ويسعى جهـده فى ظاهره وباطنه في مكافحتها والقضاء عليها . فريقان مؤمن قوى الايمان واضحه ، وكافر شديد الكفر واضحه . فاذا ما امتدت الدعوة ، وظهر سلطانها ، اتصل بأهلها طمعا أو رهبا دون أن يؤمن بها فريق ثالث تزيا بزيهم فيصلى مثلا كما يصلون ، ويصوم كمـــا يصومون ما دام فى صفوفهم ، وما دام فى أمن من التكاليف الشـــاقة والتضحيات النفسية والمالية ، واذا ترك هذا الصنف فى تردده بين ايمانه الظاهر وكفره الباطن ، كان معول

★ الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٥ من سورة العنكبوت

هدم فى جماعة المؤمنين ، وكان أشد فتكا بهم وبدعوتهم من أعدائهم البارزين .

لهذا اقتضت حكمة الحكيم ان يكون له فى كل دعوة اصلاحية من أنواع التكاليف ما يمتحن به المرء فيعرف منه الصدق ان كان صادقا ، ويعرف منه الكذب ان كان كاذبا ، وبذلك تطهر صفوف المؤمنين من عناصر التخذيل، ويعرف خبيثهم من طيبهم ، وقد عنى القرآن كثيرا بلفت الانظار الى فائدة الابتلاء بالتكاليف الشاقة من صنوف الجهاد ، وأنواع البذل فى سبيل الله : « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » .

الابتلاء سنة فى الاولين والآخرين

وفى هذا الشأن نزلت سورة العنكبوت ، وارشدت الى ان الابتلاء سنة فى الاولين ، وماضية فى الآخرين : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

عناية الله بالمؤمنين

وفى اشد عزائم الصادقين المخلصين الذين يتقبلون فى جد البلايا والمحن ترشدهم الآيات الى ان الباطل ، مهما قويت أنصاره ، وعلا زبده ، مآله الاضمحلال والزوال ، ولابد أن يقع دعاته تحت سلطان الله القوى

القاهر ، الذى لا مفر منه :« أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون » .

وتشد الآيات أزرهم مرة أخرى فترشدهم الى أن الله لم يمتحنهم بالشدائد حبا فى تعذيبهم ، أو لتحصيل كمال ينقصه ، وانما يمتحنهم بالشدائد تقويه لايمانهم ، وتثبيتا لسلطانهم ، وتعظيما لاجرهم عند الله : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون » .

حقان محفوظان

وكثيرا ما يصدم الانسان ، فى عاطفة ايمانه ، عاطفة أبوة تدعوهم الى الكفر ، أو تدعوه الى ترك الجهاد فى سبيل الدعوة التى يؤمن بها ، ولربما أضعفت تلك الصدمة صبر المؤمن ، وسولت له ترك ايمانه أو الاخلال بواجبه ، وفى حل هذا الاشكال ترسم السورة طريق الخلاص فتحفظ للابوة حقها الذى لا يطغى على حق الله ، وهو الاحسان اليها ، وتحفظ لله حقه ، فلا تطاع الابوة فى الاشراك به : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

من اوصاف المنافقين

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى بعض شئون المنافقين، فتذكر انهم يضعفون عن تحمل ايذاء الكفار لهم ، ويجعلونه كعذاب الله مخشيا مرهوبا ، ولا يقدرون على

دفعه . وبذلك يتزلزل ايمانهم ، وتضعف مقاومتهم ، وتذكر أيضا أنهم لا يظهرون فى صفوف المؤمنين الا حين تمام النصر والغلب : « ولئن جاء نصر ربك ليقولن انا كنا معكم » .

وقد كان من صور تغرير الكافرين بضعاف الايمان أنهم يتكفلون لهم بخطاياهم ، وتحمل تبعات كفرهم أن كان هناك يوم للجزاء والحساب ، وقد عهـــدنا ان عناصر الفساد تغرى ضعفاء القلوب بالآمال الكاذبة اذا استقاموا معهم وعاونوهم فيما يريدون من شر وفساد . والسورة ترشد الى هذا النوع من الخداع ، وتظهر الحقيقة جلية ناصعة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، وما هم بحاملين من خطـــاياهم من شيء ، انهم لكاذبون » .

ابتلاء السابقين

ثم تعود الآيات فترشـــد بالاسلوب التاريخى الى أن الابتلاء ليس شأنا خاصا بمحمد وأمته ، وانما هو شأن عام ، تقلب فيه نوح وقومه ، وتقلب فيه ابراهيم وشيعته حتى قيل : « اقتلوه أو حرقوه » فأنجاه الله كما انجى المؤمنين قبله .

ولا يفوت الآيات أن تقرع أسماع المكيين أثناء هـــذا القصص بالتبكيت والسخرية على ما اتخذوا من دون الله أوثانا لا يملكون لهم رزقا ، وتأمرهم بالنظر فيما خلق الله ، وبالسير فى الارض ليعلموا آثار قدرته ، وليؤمنوا بأنه رب النشأتين : الاولى والآخرة ، وأنه على كل شيء

قدير : « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

الربع الثانى :

عاقبة صبر ابراهيم

* وفيه بيان عاقبة الصبر الذى اعتصم به ابراهيم فى الدعوة الى الله وفيما وجهه اليه قومه من كيد وايذاء ، قد كان منها أنه اكتسب قوة من عشيرته كان لها أثرها الواضح المستمر فى الدعوة الى الله ، هو وابن أخيه لوط ، ومنها ان الله أعزه بالهجرة التى مكنت له فى القيام بدعوته ، ومنها أن الله أكرمه بذرية صالحة تنسج على منواله ، وتسير فى طريقه وتفتح للناس طريق الهدى والرشاد ، وبذلك خلد ذكره ، وامتلأت جميع القلوب بمكانته : « فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين » .

لوط وقومه

وتسير الآيات فى تصوير ابتلاء الله لعباده المؤمنين ، والتنويه بشأن جهادهم وصبرهم على الكيد والاذى ،

★ الآيات من ٢٦ الى نهاية الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

وما كان لهم من حسن العاقبة فتذكر لوطا وما قاساه فى دعوة قومه الى التطهير من فاحشتهم التى شذوا بها عن الفطرة ، وأفسدوا بهـا خلق الله حتى ضاق صدره ولم يجد ملجأ سوى الاستنصار بربه : « رب انصرنى على القوم الفاسدين » فسمع الله نداءه ، وبعث اليه بجند الانقاذ ومدد النصر « ولما ان جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ، وضاق بهـم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحـزن ، انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين ، انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » .

عناصر الشر التاريخية

وتشير الآيات فى التذكير بأهل البغى والعناد ، فتذكر مدين وتكذيبهم لشعيب ، وتذكر عادا وثمود وما كان منهم لهود وصالح ، ثم تذكر قارون وفرعون وهامان واستكبارهم فى الارض وثلاثتهم من عنـاصر الشر التاريخية ، وقد شرحت سورة القصص السابقة علوهم فى الارض ، وبغيهم على عباد الله .

ثم تضع الآيات أصابع المكيين ، ومن يتخذ سبيلهم فى محاربة الحق ، على حروف المعاقبة التى حلت بهم ، وطوقتهم بألوان من عذاب الله « فـكلا أخـذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليـه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصـيحة ، ومنهم من خسفنا به الارض ، ومنهم من أغرقنـا ، وما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

واذا كانت سنة الله فى أخذ الظالمين واحدة ، فنحن فى عصرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الاشجار وتنزل بشاهقات العمـــائر ، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الارواح من الاشـباح ، وعن البراكين تتفجر وتلتهم نارها القرى والمدن ، وعن الارض تتفكك أوصالها وتغور طبقاتها ، وتصبح مقبرة لمن عليها، وعن الفيضانات ، وقد فار تنورها ، وأتت على كل شيء من الحضارات . كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم فى اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الانسان على أخيه الانسان . وكان جديرا بهم اذا كانوا أرباب دين وايمان أن يبذلوا جهدهم فى وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام ، واقامة العدل ، والكف عن المظالم .

اوهن البيوت

وبعد أن تسبح السورة هذا السبح الطويل فى سنة الابتلاء ، ومصير المكذبين الذين يفتنون النـــاس عن الحق ، تتجه الى المكيين ، فتصـور لهم ضعف الملجأ الذى اعتصموا به ، وهو الاوثان ، عن أن يدفع عنهم كيد الله وانتقامه وتجعل مثلهم ، فى اتخاذهم اياها ، كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتا من تلكم الخيـــوط الواهية الضعيفة التى تنسجها ، فلا تدفع عنها حرا ولا بردا ، ولا تحفظها من يد تمتد اليها ، ولا ريح يهب عليها ، فــذلك ولاية الاوثان لهـؤلاء ، ولاية لا تسوق اليهم

خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتـــا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

مثل يأخذ بقلوب المؤمنين ، ويريهم شاسع الفرق بين من يتخذ الجاهل ـ الذى لا يقدر ـ وليا من دون الله ، يعتمد عليه ويستنصره ، وبين من يتخذ المحيط بـكل شيء ، القادر على كل شيء وليا يعبده ، ولا يعبد سواه : « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » ، « خلق الله السموات والارض بالحق ، ان فى ذلك لآية للمؤمنين » .

ثم تتجه الآيات الى أهل الايمان الحق فى شـــخص رسولهم ، وترسم لهم طريق العصمة من التردى فى هاوية هؤلاء الضالين المكذبين ، فتأمر بتلاوة الكتاب ، والانتفاع بهديه وارشاده ، وقصصه واخلاقه ، وأحكامه ودلائله .

ثم توصى على وجه خاص بالصلاة واقامتهـا ، فهى المعراج القوى الذى يصعد به المؤمن الى ربه ، وهى العدة التى يجاهد بها المؤمن نفسه وهواه ، وهى النور الذى يرى به عظمة مولاه ، وبه يراقبه فى سره ونجواه : « اتل ما أوحى اليك من الـكتاب ، واقم الصـلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » .

سورة غافر

الربع الثالث :

* هذا هو الربع الثالث من سورة غافر ، وقد بدأها الله بجملة من صفاته ، ذات الجلال والجمال ، وكان فى مقدمة تلك الصفات صفة المغفرة التى يفتح بها للضالين المكذبين باب الرجوع اليه : « غافر الذنب وقابل التوب » . ولهذا البدء سميت بسورة غافر . وتسمى أيضا بسورة المؤمن ، لانها انفردت ــ وهى تذكر بموقف المبطلين من قوم موسى عليه السلام ــ بذكر نصيحة مؤمن من آل فرعون ، قيضه الله للحق الذى يدعو اليه موسى من بيئة الكفر والعناد ، وأخذ يلقى عليهم مواعظه التى من شأنها أن تستل من قلوبهم محاربة الحق، والاستكبار عن قبوله . حذرهم تنفيذ ما عزموا عليه من قتل موسى وأنذرهم عاقبة استمرارهم فى الطغيان ، وضرب لهم فى ذلك الامثال بمصائر المكذبين قبلهم . كما خوفهم عذاب الآخرة الذى سينالهم يوم الجزاء الذى لا عاصم فيه من

★ الآيات من ٤٦ الى ناهية الآية ٦٥ من سورة غافر

أمر الله ، ودعاهم الى اتباع الحق ، وتلبية الهدى والرشاد ، وأنكر عليهم تعلقهم بالدنيا الزائلة ، وبين لهم أن العاقل يجب أن يربط نفسه بالباقى الدائم ، لا بالمتاع الفانى : « يا قوم انما هذه الحيـــاة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار » .

يربط نفسه بالباقى الدائم ، لا بالمتاع الفانى : « يا قوم انما هذه الحيـاة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار » .

وكان آخر نداء وجهه اليهم انكاره عليهم — بعد أن تبين له الحق ودعاهم الى النجاة — أن يدعوه الى ترك ذلك الحق ، وأن يدخل فى باطنهم : « ويا قوم مالى ادعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار » . ويشرح لهم ذلك بقوله : « تدعوننى لاكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار » .

وأخيرا ، وبعد أن يبذل فى نصحهم أقصى الجهـــد البشرى ، أعلنهم بكلمة الواثق من عقيدته ، الحريص على خير أمته ، المضحى بنفسه فى سبيل الحق الذى يدعو اليه :

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » . وكانت عاقبته ان حفظه الله ورعاه ، وعاقبتهم أن نزل بهم الكيد والبلاء : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » .

العبرة من القصة

وعبرتنا من هذه القصة أمران : احدهما أن الحق ،

مهما تكتل على اخفائه ورفضه أعوان الباطل ، لابد أن يقيض الله له من بيئة المبطلين أنفسهم من يؤمن به ، ويغار عليه ، ويضحى بنفسه وراحته فى سبيله حتى يظهره الله .

وهكذا كان حق محمد ، وباطل المشركين ، وهكذا شأن كل دعوة الى الحق أمام المبطلين فى كل عصر ، وفى كل زمان .

ثانيهما : ان على من تبين له الحق وآمن به أن يبذل غاية وسعه فى دعوة قومه اليه ، حتى اذا أيس منهم وأيقن ان لا فائدة من دعوته اياهم واعتزلهم وما يعبدون من باطل ، وعندئذ يتولى الله أمرهم ، ويوقع بهم شديد العقاب : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » . « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » .

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك ، وتصور للمبطلين موقف أتباعهم من متبوعيهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين ، كما تصور التجاء الجميع الى جنود العذاب : « خزنة جهنم » يلتمسون منهم دعوة الله الى تخفيفه ، فلا يكون الجواب سوى تسجيل الخزى والعذاب عليهم ، وتبكيتهم على انكار الحق بعد أن قامت عليهم حججه ودلائله : « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى . قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال مبين » .

ثم تضمن الآيات لدعاة الحق النصر والتأييد وتأمرهم بالتزام الصبر والتمسك بحبل الله فى سبيل الدعوة

اليه ، وتؤكد لهم ان معارضة المبطلين لم تكن ناشئة عن برهان ، وانما هى أثر لكبر ملأ قلوبهم ، وستضمحل قوتهم ببركة الاعتصام بالله : « فاصبر أن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار » . ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم أن فى صدورهم الاكبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله ، انه هو السميع البصير » .

ثم تلفت الآيات الى آثار قدرة الله فى الكون ، فتذكر نعمته على العباد بالليل الذى فيه يسكنون ، وبالنهار الذى فيه ينتشرون ، وبالارض التى عليها يقرون ، ومنها يرزقون ، وبالسماء التى بمائها ينتفعون ، وبنجومها يهتدون ، ثم تبرز لهم نتيجة كل ذلك التى هى دعوة الحق : « ذلك الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

الربع الرابع :

* هذا هو الربع الرابع والاخير من سورة غافر ، وقد ختم الربع السابق بجملة من صفات الجلال والعظمة، تدعو الى أفراد الله سبحانه بالعبادة والتقديس ، والاتجاه اليه وحده بالحمد والثناء على ربوبيته العامة للعالم ، وتحول بين الانسان المدرك لآثار هذه الربوبية ، وبين الخضوع لغيره سبحانه ، وتحمله على تقرير الحق

★ الآيات من ٦٦ الى آخر سورة غافر

« قل انی نهیت ان أعبد الذین تدعون من دون الله لما جاءنی البینات من ربی ، وأمرت أن أسلم لرب العالمین ».
فی الربوبیة والعبادة فی نفسه ، وفی عمله ، وفی دعوته:

الله الخالق

ثم تعود الآیات الی ترکیز العقیدة عن طریق لفت الانظار الی جملة من الادلة النفسیة التی یدرکها الانسان فی کیفیة خلقه وفی الاطوار التی مرت به : « هو الذی خلقکم من تراب من نطفة ثم من علقة ثم یخرجکم طفلا ثم لتبلغوا أشدکم ثم لتکونوا شیوخا ومنکم من یتوفی من قبل ، ولتبغلوا اجلا مسمی ، ولعلکم تعقلون » .

شأنه کن فیکون

هذه الاطوار ترشد بأوضح بیان الی أن الذی تولاها، ودرج بالانسان فیها « هو الذی یحیی ویمیت » والی أنه صاحب الامر النافذ الذی لا یعجزه شیء فی الارض ولا فی السماء « فاذا قضی أمرا فانما یقول له کن فیکون » وهذا شأنه لا یتغیر : نراه فی کتلة العالم ، ثم نراه فی النبات ، وفی الحیوان ، وفی الانسان ، وهو شأنه فی الحال ، وشأنه فی المال ، یوجد « بکن » ویمیت « بکن » . « وکن فیکون » شأنه الذاتی لا یتخلف ولا یزول . واذا کان شأنه « کن فیکون » فالی أی جانب یذهب هؤلاء الذین ینکرون حقه الذی یغار علیه ، والذی أرسل به رسله ، وأنزل به کتبه ؟ ان حجج الحق قد طوقتهم ، وأخذت علیهم جمیع المسالك ، ولم تجعل

لهم سوى مسلك واحد سيعلمونه حينما توضع الاغلال والسلاسل فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، ثم يقال لهم : ان ذلك الذى أنتم فيه « بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين » .

وبعد أن تصور الآيات مصير المجادلين بالباطل ، هذا التصوير الذى ينزع من الصدور قلوبها ، تعود فتأمر أهل الحق بالصبر والثبات : « فاصبر ان وعد الله حق » وتؤكد لهم أن مرد المعاندين الى الله سواء عجل لهم العذاب أم أخره : « فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون » .

ثم تلفت الانظار الى ان شأن دعاة الحق مع المعارضين هو شأن المرسلين السابقين : أوذوا فى سبيل الله وصبروا : « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله فاذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » .

ثم تأخذ فى التذكير بنعم الله فيما خلق لهم من أنعام ينتفعون بألبانها ونسلها . وفيما هيأ لهم من سفن تحملهم وتحمل أمتعتهم الى آفاق غير آفاقهم ، ثم توقظ فيهم ضمير الحق : « ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون » .

ثم تذكر الآيات بسنة الله مع أسلافهم الذين أنكروا الحق ، وكانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الارض ، فما أغنى عنهم ما كانوا عليه من قوة ، وما كانوا فيه من كثرة ، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون : « فلما رأوا

بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » .

واذا كانت عوامل الفساد ، وعناصر الشر ، ومظاهر الطغيان ، وسنة الله التى يأخذ بها الطغاة واحدة فى كل العصور ، فليحذر هؤلاء الطغاة ، الذين يسخرون ما أنعم الله به عليهم من علم ، وقوة ، ومخترعات فى استعباد خلق الله واستعمار أوطانهم ، فليحذروا غضبة الله للحق ، وغيرته على عباده ، فتلك سنته ، ولن تجد لسنته تبديلا .

الفصل الثامن :

سورة فصلت وسورة الشورى

سورة فصلت

الربع الاول :

* سورة فصلت ، وتعرف بسورة السجدة ، هى السورة الثانية من سور سبع بدئت بحرفى « حا ميم » وعرفت لذلك فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وقد نزلت مرتبة متتالية ، ووضعت فى المصحف كما نزلت، هى كلها تؤكد أن القرآن تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، من العزة والحكمة والعلم والرحمة : « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » « تنزيل من الرحمن الرحيم » « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

القرآن وحى الله الى رسوله

ومعنى هذا ان القرآن ليس ـ كما يزعم المبطلون ـ من سحر الكهان ، ولا من أساطير الاولين ، ولا من

★ الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٤ من سورة فصلت

مفتريات محمد ، ولا من تعليم بشر ، وانما هو وحى من الله أنزله على رسوله ، يقرر به أصول دينه من الايمان بوحدانيته ، والايمان بالوحى والرسالة ، والايمان بالبعث والجزاء ، وقد لفتت جميعها فى سبيل ذلك الى آثار الله ونعمه فى الانفس والآفاق الدالة على قدرته النافذة ، وعلمه المحيط ، وحكمته البالغة ، كما أنذرت ورغبت . أنذرت بالعذاب الذى حل بالامم التى كذبت رسلها ، وبالعذاب الذى أعد لهم يوم البعث والجزاء ، ورغبت بالحياة الطيبة فى الدنيا ، وبالنعيم الدائم فى الآخرة ، وكثيرا ما تضمنت تحليل نفسية المكذبين ، وصورت أعراضهم ، وجنايتهم على استعدادهم لسماع الحق والحكمة ، تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتهدئة لنفسه ، ونفوس أصحابه المجاهدين .

عنـــاد

وها هى ذى سورة فصلت ، قد وضحت كثيرا من مواقفهم أمام الحق الذى يدعوهم اليه ، وكان من أبرز ما فصلته تصوير أعراضهم عنه ، وشدة نفورهم منه بقولهم : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون » . يصفون أنفسهم بأن قلوبهم فى أغطية محكمة فلا ينفذ اليها شعاع من الدعوة ، وبأن آذانهم فيها وقر وثقل ، فهى لا تحمل الى قلوبهم صوتا من الحق ، وبأن بينهم وبين الداعى ـ محمد عليه السلام ـ حجابا مانعا من التفاهم وتبادل الرأى . والمعني فى ذلك كله أنهم طمسوا

استعدادهم ، وطمسوا على أنفسهم سبل الحق. وتصوير أعراضهم بهذا النحو يطابق تماما تصويره بقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » . وان اختلف القصد والهدف ، فالقصد فى آية الختم بأنهم بأهوائهم أعرضوا عن الحق ، وزين لهم الشيطان ذلك الاعراض حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . والقصد فى آية الاكنة ، انهم يحقرون شأن الدعوة ، ويعلنون انها ليست مما يستحق أن تفتح له القلوب أو تسمع له الآذان ، أو ترفع بينهم وبين صاحبها الحوائل .

اوامر من الله لنبيه

أمام هذا التصوير ، الذى يصورون به اعراضهم عن الدعوة ، يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أولا مهمته ، وانه ليس الا بشرا يوحى اليه ، فيبشرهم ان آمنوا ، وينذرهم ان أعرضوا ، وليس عليه شىء من تبعة أعراضهم وتكذيبهم « قل آنما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين ».

وتأمرنا ثانيا : أن يقرر لهم ان أعراضهم عن دعوة الحق ليس الا كفرا بما شهدت بوحدانيته وقدرته ظواهر التكوين وأطواره فى الارض وما أودع فيها من جبال وأقوات ، وفى السماء وما نظمت عليه من كواكب ومصابيح : « قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين » . فان هم استعملوا عقولهم ، وآمنوا بما تنطق به هذه الظواهر فقد أفلحوا وسعدوا ، وان هم أعرضوا : « فقل أنذرتكم

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

وتأخذ الآيات فى بيـــان ما كان لهؤلاء من قـوة واستكبار فى الارض ، ومع ذلك لم تغن عنهم قـوتهم ولا استكبارهم ، بل أخذهم الله بالعـــذاب الهون : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

تأمره ثالثا : ـ بعد هذه المثلات الخالية ـ أن ينذرهم بما يصيرون اليه يوم القيامة ، يوم يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . يوم ينكرون على جوارحهم ـ التى استخدموها فى الشر والفساد ـ أن تشهد عليهم بما أفسدوا ، فتقر لهم الجوارح ان الله ، الذى انطق كل شىء بوحدانيته ، قد أنطقها بجرائمهم ، وأنهم كانوا بحالة من يظن أن الله تخفى عليه شئونه : « ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين» .

وهكذا تكون نهايتهم ، أجزعوا واستغاثوا ، أم صبروا فى ظل من رجاء العفو والمغفرة ؟ « فان يصبروا فالنار مثوى لهم ، وأن يستعتبوا فما هم من المعتبين » .

الربع الثانى :

اخوان السوء

* صور الربع السابق اعراض المشركين عن الدعوة ، وبين مصيرهم يوم القيـــامة وما يلحقهم من الخزى

★ الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة فصلت

والخسران وفى هذا الربع ترشدهم الآيات الى أن هــذا المصير السىء لم يكن أثرا لطبعهم على الضــــلال ، ولا اكراها لهم من الله عليــــه ، وانما هو أثر لتأثرهم باخوان السوء الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من الاهواء والشهوات ، وعبرتنا فى ذلك أن الشر كثيرا ما يصيب الانسان من وقوعه تحت تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به . فعلى العقلاء ان أرادوا حيــــاة طيبة أن يتخيروا الاصدقاء ، وان يطهروا مجتمعهم من عناصر

الشر ، وبذور الفتن ، حتى لا يكون لها سـلطان على قلوبهم .

وكما صور الربع الاول اعراض المشركين عن الدعوة فى أنفسهم بقولهم : « قلوبنا فى أكنة » ، صور هــذا الربع طريقتهم فى محـــــاولة صرف الناس عنها : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . يحذرونهم عن الاستماع اليه ، والانصات له ، مخافة أن تصل الى قلوبهم حكمه السامية ، ويرسمون لهم أسلوب ذلك بما يخفى عليهم فضله : « والغوا فيه » : أطلقوا عليه ألسنتكم ، أشيعوا السخط عليــه ، انشروا عنه الاباطيل . وهذا شأن عرفه المضللون طريقا لاخفاء الحق فى كل زمان ، يغمرونه بالاراجيف والمفتريات ، ويتتبعون أهله بالمقاطعة والتهريج أينما حلوا ، وأينما ارتحلوا . والله يتوعد المرجفين الذين يعملون على اخفـاء الحق بالعذاب الشديد ، وسيكشف للتابعين افساد المتبوعين لهم : « ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الاسفلين » .

المؤمنون فى رعاية ربهم

ثم تشد الآيات أزر المؤمنين وتؤكد لهم انهم ــ بايمانهم واخلاصهم فى الدعوة ، واستقامتهم على حدودها ــ فى حماية الله ورعايته ، يقوى قلوبهم ويطرد عنهم بواعث الخوف والحزن ، ويمنحهم كل ما يطمئنهم ، ويبشرهم بالفوز والفلاح : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .

ثم ترشدهم الى أنهم بدعوتهم الى الله فى منزلة لا يوجد فى حكم الله وقضائه أسمى منها : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » . كما ترشدهم الى ما يحفظ عليهم تلك المنزلة من تحلية النفس بالصبر والاحتمال ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وتطهيرها من نزعات الشيطان التى يزل بها المؤمن عن مقتضى الايمان وتمنعه منزلة السمو بالدعوة الى الله : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » .

بعض دلائل الوحدانية

ثم تعود الآيات فتلفت الانظار الى بعض دلائل الوحدانية فى علوى العالم وسفليه ، وأن كل ما فى الكون خاضع لقدرته وسلطانه ، فلا يصح السجود لغيره مهما عظم : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن » وترشد الى ان العدول عن مقتضى هذه الادلة انحراف عن الحق ، والحاد فى آيات الله ، وتتوعد

هؤلاء الملحدين باطلاع الله على سرائرهم ، والعوامل التي دفعتهم الى هذا الالحاد : « ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى في النار خير ، أم من يأتي آمنا يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » .

تسلية

ثم تنتقل الآيات الى تهوين الامر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي سبيل ذلك ترشده الى أن موقف قومه منه هو موقف الامم الماضية من اخوانه السابقين ، وما عليه الا أن يصبر كما صبروا : « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » فلا تسمع لمقترحاتهم ، ولا تهتم بكيدهم ، فهم قوم لا يثبتون على حال ، ولا يرضيهم الا الشهوات والاهواء، ولقد أنزلنا عليهم قرآنا عربيا بلسانهم ، فيه التفصيل والبيان ، والحجة والبرهان ، فأعرضوا عنه وقالوا في آذاننا وقر : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد » .

ثم تختم الآيات بتقرير مبدأ الحكمة والعدالة في المؤاخذة بالاعمال صالحها وسيئها ، وان نفسا لا تتحمل وزر أخرى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » .

الربع الاخير :

* ومن أساليب القرآن فى الدعوة التهديد والانذار بأهوال الساعة وشدة العذاب فى الآخرة ، وقد جاء ذلك فى عبارات مختلفة ، وعلى ألوان وأنحاء متعددة ، تصف الآيات مقدمات الساعة تارة ، وتصف الحشر أخرى ، وتتحدث عن العذاب ثالثة ، وعن أحوال المكذبين مع شركائهم أو مع الحق رابعة ، وهكذا الى آخر ما نراه فى القرآن الكريم ، ومما جاء فى ذلك من سورتنا : « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » ، « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون » ، « فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » ، « أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ » .

وكان القوم يقابلون الحديث عن الساعة وعن عذاب الآخرة تارة بالانكار والتعجب من الاخبار به ويقولون : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، « ومن يحيى العظام وهى رميم » ، وتارة بما يفيد انهم شاكون متحيرون : « ما ندرى ما الساعة ، ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » ، وكثيرا ما كانوا يسألون عن وقتها ، ويستعجلون عذابها ، تهكما واستهزاء ، وكان القرآن فى كل هذه المواقف يجيبهم بالحجة الداحضة التى لا تدع مجالا للانكار ولا للشك ،

★ الآيات من ٤٧ الى آخر السورة

وكان ـ فى سؤالهم عن الوقت ـ يرد عليهم بأن علمه مما استأثر الله به ، ولا يطلع عليه أحدا من خلقه ، ومن ذلك ما جاء فى هذا الربع : « اليه يرد علم الساعة » ، والعبارة واضحة فى أن علم الساعة لا يعلمه أحد سواه ، وقد ضمت الآية اليه بعض الاحداث الكونية التى تأخذ حكمه ، وهم بأنفسهم يعترفون بأنه لا يعلمها أحد سواه ، « وما تخرج من ثمرات من أكمامها (أوعيتها) وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » . وقد جاء ذلك المعنى فى كثير من الآيات : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » « قل انمـــا العلم عند الله وانما أنا نذير مبين » . « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى » .

الحكمة فى اخفاء الساعة

والحكمة فى اخفاء الساعة هى الحـــكمة فى اخفـــاء الآجال ، هى الحكمة فى اخفاء الاحداث والنوازل ، فان الانسان لو علم بها لخـــارت قواه ، وانسد أمامه باب الامل ، وحيل بينه وبين العمل ، وصار فى حالة تشبه القهر والالجـــاء . وبعد أن وأضحت لهم الآيات شأن الساعة ، أخذت بهم الى التذكير بما ينفعهم ، فذكرت لهم يوم ينادون : أين الشركاء الذين كانوا يتخذونهم أولياء من دون الله ، وما يجيبون به عن هذا السؤال ، يتبرءون منهم ، ويسجلون على أنفسهم أن أحدا منهم لم يشهد لهؤلاء بالعبودية ، ولا بالولاية : « وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص » ، وهذا نوع

من الحيرة والتردد ، يلازمهم في الآخرة ، كما كان يلازمهم في الدنيا .

الايمان مبعث الشكر والصبر

ومن هنا تذكر الآيات أن الانسان الذى لم يعتصم بالايمان مبعث الشكر على النعماء ، ومبعث الصبر على الضراء ، تتردد مواقفه في الخير والشر والنعمة والنقمة بين الفرح والبطر ، والهلع والجزع ، بين الالتجاء الى ربه فى وقت الشـدة ، ونسيانه وقت الرخاء ، بين الرضا عند الاكرام والانعـام ، واليأس والقنوط عنـد التقتير والابتـلاء ، بين دعاء ربه واستغاثته والاعراض عنه صلفـا وكبرا ، وفى تلك الاحوال النفسية ، التى تحللها البشرية الحيوانية ، تقول سورتنا : « لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى » . « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . وكثيرا ما أكد القرآن هذه النفسية التى يحملها القلب الذى لم يعتصم بالايمـان بالله « فلما نجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق » ، « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور » .

أما العلاج فهو ما جاء فى قوله تعالى : « الا الذين صبروا وعملوا الصـالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر

كبير » . وفى قوله : « أن الانسان خلق هلوعا أذا مسه الشر جذوعا واذآ مسه الخير منوعا الا المصلين .

ثم تختم السورة بأن انكارهم للحق قبل النظر والتفكير ـ وهو على الاقل يحتمل أن يكون من عند الله ـ ليس فى نظر العقلاء الا ضلالا وفسادا ليس بعدهما من ضلال ولا فساد : « أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟ » .

وبأن الادلة على حقية القرآن ، وانه من عند الله ، لا تقف عند هذا الحد فيما تجلى لهم من أسرار الكون وخصائصه ، وعجائب الله وتصاريفه ، بل ستتضح ، وسيرونها فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، كلما تقدمت مدارك الانسان وخاض غمار الكون فعرف خواصه ، وسنن الله فيه ، فى الآفاق والانفس : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ، صنع ربك الشهيد على كل شىء وهم فى مرية من لقائه ، انه بكل شىء محيط .

سـورة الشورى

الربع الاول :

✻ هذه هي السورة الثالثة من السور السبع ، التى عرفت فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وهي تشارع زميلاتها فى الهدف والمنهاج ، فهى تؤكد ان القرآن ما هو الا تنزيل من الله الجـامع لصفات الجلال والجمال ، والذى خضعت له الكائنات « الله العزيز الحكيم » ، « وهو العلى العظيم » وانه ليس الا وحيا أوحى به الله الى رسوله ، لينذر الاقوام الذين فسـدت فطرهم ، واتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دونه ، وهو الولى الذى لا ولى سواه : « وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير » .

وأرشدت السورة مع هذا كله الى ان وحى الله الى عباده حقيقة ثابتة ، أخذت حظها من الوجود بالنسبة لمحمد ، وبالنسبة لاخوانه السابقين ، فليس الوحى شأنا خاصا به ، ولا هو بدعا من الرسل : « كذلك يوحي اليك

★ الآيات من ١ الى آخر الآية ٢٦ من سورة الشورى

والى الذين من قبل الله العزيز الحكيم » . « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » .

الوحى روح

ثم تصف الوحى بأنه روح يحيي القلوب الميتة ، ويهدى الى صراط مستقيم ، وأنه فضل من الله على محمد ، وأن حالة محمد قاطعة في أن القرآن ليس من عنده وانما هو من عند الله : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلنا نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم » .

ثم تقرر السورة ان الوحى من لوازم حكمة الله ، ومتناول قدرته التى ظهرت آثارها فى الخلق والرزق : « فاطر السموات والارض » ، « له مقاليد السموات والارض » .

وحدة دين الله

ثم تبرز السورة حقيقة ضل فيها الناس بغيا وعدوانا، فذهب فريق الى انكارها ، وفريق الى الايمان بها لبعض الرسل دون بعض . تلك الحقيقة هى أن الدين الذى أوحى الله به الى محمد هو الدين الذى أوحى به الى نوح ، والى ابراهيم وموسى وعيسى ، ووصاهم باقامته ودعوة الناس اليه ، وعدم التفرقة فيه ، وقامت فيه حجة كل رسول على قومه ، ولكن الناس كبر عليهم ، حقدا

وجسدا ، أن يؤمنوا بتلك الحقيقة المتحدة ، فأنكروها . او فرقوها ، وزعموا ان الاديان تتعدد بتعدد الرسل ، وأن لكل دين أصـــــولا واتباعا ، وأخذوا باسم الدين يتحاربون ويتسافكون ، والدين منهم برىء ، والله من رائهم محيط ، فدين الله واحـد ، وانـكاره من أحد الانبياء انكارا له من جميعهم .

وقـد عرض القرآن كثيرا فى مكيه ومدنيه لتقرير الوحدة الدينية ، وقرر الايمان بكل الرسل وبكل الكتب ، وجاءت فى سورتنا « الشورى » واضحة جلية : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » .

رسم منهاج الدعوة

ثم تتجه السورة بعد تقرير هذه الحقيقة الى الرسول عليه الســـلام ، واضع اللبنة الاخيرة من هـذا البناء الالهى ، المكمل لشرائع الله ، على حسب استعداد خلق الله . تتجه اليه عليه الصـــلاة والسلام ، فترسم له منهاجا للدعوة غاية فى القوة ، منهاجا يزيد المؤمنين ايمانا على ايمان ، ويزيد المعاندين المغرقين رجسا على رجس ، منهاجا يتكون من عشر فقرات كانت عدته فى الهجرة ، وعدته فى الدعوة ، وعدته فى الوصول الى الغـــاية : « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ،

الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير » .

انتصار الحق

ثم تطمئن السورة بعد ذلك دعاة الحق الذين يلتزمون هذا المنهاج ، بأن معارضة الجاحدين لتلك الحقيقة ، المشوهين لها — بعد أن أخذت الى القلوب الحية سبيلها — معارضة ضائعة فاشلة : « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » .

فالحق متى أخذ مكانا ما ، سرت روحه ، وانتشر نوره ، وسار بقوته حتى يعمل عمله فى النفوس دون حرب ولا نضال ، وهكذا انتشر الاسلام عن طريق السياحة ، وعن طريق التجارة ، وعن طريق الخبر ، دون حرب ولا نضال ، ولا يزال يغزو القلوب ، وتتفتح له الافئدة دون اكراه أو الجاء .

ثم أخذت الآيات فى تبكيتهم على انكار البعث ، واتخاذ غير الله أولياء مع ظهور الآيات والدلائل ، وتفتح لهم باب الرجاء فى العفو والمغفرة اذا هم أقبلوا عليه ، وخلعوا أنفسهم مما هم فيه ، وآمنوا بما أنزل الله : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد » .

الربع الثاني :

المؤمنون لا تفتنهم الدنيا

* جاء فى الربع السابق ، ان الله يجيب حاجة الذين آمنوا ويزيدهم من فضله وأن للكافرين عذابا شديدا ، ومع ذلك فقد كان الكافرون فى بسطة من الرزق وسعة من العيش ، والمؤمنون على عكس ذلك ، وقد يكون هذا هو المشاهد فى جل الازمان ان لم يكن فى كلها .

وفى هذا الربع تكشف الآيات عن شأن فى الانسان ، يرجع هذا الشأن الى انه اذا كثر ماله وجاهه شغل به عن مقومات نفسه وروحه ، وكثيرا ما يندفع الى البطر والطغيان ، ويتعرض بذلك الى عاقبة الطغاة من الحرمان المطلق ، والعذاب الاليم ، فكان من الحكمة الوقوف بالمؤمن — فيما يجر الى الطغيان — عند حد القصد والاعتدال ، وهو فيما يقوم بالحاجة ، ويحقق الكمال الذى لا يؤدى الى الطغيان .

حكمة فى بسط الرزق وقبضه

ومن هنا نرى أن المؤمنين ، فى الاعم الاغلب ، أقل من غيرهم فى متعة الحياة الدنيا وزينتها ، رحمة بهم وحرصا عليهم ولا كذلك الذين جحدت قلوبهم ،واستولت الدنيا على نفوسهم : « ولولا ان يكون الناس أمة واحدة

---

* الآيات من ٢٧ الى آخر السورة

لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » .

بهذا طمأن الله المؤمنين ، قرر أنه لو بسط الرزق لهم ، كما بسط لغيرهم ، لمالوا الى الشهوات وانحرفوا عن عن الطريق المستقيم ، وهو لذلك يمد اليهم يده بالقدر الذي يعلم انه يقوم بحاجتهم وعزتهم ولا يطغيهم ، وليس ذلك عجزا عن أن يمنحهم كما يمنح غيرهم ، ولا بخلا عليهم بما لم يبخل به على غيرهم فهو القادر على العطاء بغير حد ، وهو الذى بيده أسباب الرزق وهو الرءوف الرحيم بالمؤمنين ، فهو الذى ينزل الغيث ، وهو الذى خلق السموات والارض وسخرها للانسان ، وبث فيهما من كل دابة ، وهو الذى وفقهم الى صنع السفن واجرائها فى البحار ، وكل ذلك ليس الا متاع الحياة الدنيا ، لا يحب أن يقف عنده للمؤمنين . وانما الذى يحبه لهم هو المتاع الباقى الذى لا ينفد ، والذى لا يحصل عليه الا من جمع خلال الخير ، ولم يربط قلبه بالمتاع الزائل ، بل جعل همه الايمان بربه ، والتوكل عليه ، وتطهير باطنه وظاهره من الاثم والفواحش ، وانقياده النفسى لمولاه ، وأداء حقه بالصلاة الخاشعة ، وحق اخوانه الفقراء بالزكاة المطهرة . ثم عرف لنفسه عزة المؤمنين ، ولم يخضع لبغى ولا عدوان ، وانما انتصر لنفسه دون اسراف ولا طغيان : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق » .

أجملت الآيات بهذا صفات المرضيين عند الله ، وهي كلها صفات تتصل بتقوية الجانب المادى عن طريق القوة فى الجانب الروحى ، والذى يجدر التنبيه اليه ان الله ذكر بين تلك الصفات مبدأ « الشورى » . وأشار الى انه شأن المؤمنين : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شـــــورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

مكانة الشورى فى الاسلام

وضعه بين اقامة الصلاة والانفاق من الرزق فى سبيل الله ، وسميت السورة بسورة « الشورى » . وكان فى هذا وذاك أبلغ دلالة على مكانة الشـــورى فى شريعـــة القرآن ، وحسبهـــا أنها عنصر من عناصر الشخصية الايمانية الحقة ، نظمت فى عقد حيـــاته طهارة القلب بالايمان والتوكل ، وطهارة الجوارح من الاثم والفواحش ، ومراقبة الله باقامة الصــــلاة والانفاق فى سبيله ، والانتصار على البغى والعدوان .

وبعنصر الشورى قضى الاسلام على عـــدو الانسانية الفاضلة ، وهو الاســـتبداد بالرأى واحتكار التشريع والتصريف والادارة ، وسلب أهل الرأى والكفايات حق ابداء رأيهم ، وآثار كفـــاياتهم . والقرآن لا يريد من الشورى ــ حين يضعها هذا الوضع ــ هذه الصورة الهزيلة التى يتواضع عليهـــا أرباب البغى والاحتكار ، ويتخذونها ستارا للطغيان ، وسلب الحقوق ، وانمـــا

يريدها حقيقة نقية بريئة مما يكدر صفوها ، ويفقد خيرها .

وبعد أن تعرض الآيات شيئا من خلال المجادلين فى آيات الله على النحو الذى عهد كثيرا فى القرآن عامة ، وفى هذه السور السبع خاصة ، توجه خطاب الدعوة والتحذير الى الناس جميعا : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » وتقرر للنبى صلى الله عليه وسلم ما به يهدأ روعه ، ويطمئن قلبه ، تقرر له مهمته ، وانه ليس عليه شىء من تبعه كفر الكافرين ، واعراض المعرضين ، « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » .

ثم تؤكد له أخيرا ان الله قد جعل له القرآن نورا يهدى به الى صراط مستقيم ، « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض الا الى الله تصير الامور » .

الفصل السابع :

سـور
الملك • والقلم
والحاقة • والمعارج

ســـــورة الملـــك

سورة الملك هى أول سورة من سور الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم ، والجزء كله من القسم المكى الذى نزل فى أول أطوار الدعوة تقريرا لاصولهـــا الثلاث : عقيدة التوحيد ، وعقيدة الرسالة المحمدية ، وعقيدة البعث والجزاء .

والله ذو الفضل العظيم

فى القرآن الكريم سورتان افتتحهما الله بتمجيده وتعظيمه ، وعبر عن ذلك بكلمة « تبارك » الدالة على الاختصاص بمعانى السمو المطلق فى الذات والصفات وبمعانى الكثرة والزيادة فى الفضل والاحسان ، ولفضل الله على عباده مظهران :

هذا الكون الذى خلقه وأبدعه وأودع فيه من الاسرار والمنافع ما تقف العقول دون اكتناهه والاحاطة به .

وهذا الكتاب المتلو الذى ختم الله به رسالاته وأنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، يوجه به العقل البشرى الى معرفة الحق فى الوجود ، والى خوض غمار الكون والتنقيب عن أسراره ومنافعه .

فهما كتابان :

كتاب صامت ينظـــــر فيه الانسان فيعرف ويؤمن وينتفع .

وكتاب متلو يقرؤه ويتدبره فينبهه الى ما فى كتاب الكون من آيات وعجـائب ومستودعات هى للانســـــان مسخرات .

وبهذين الكتابين ، الصــــــامت والمتلو ، تجلت آثار ربوبيته للعالم ، مادية حسية ، وروحية عقلية ، وقـد جاءت أول كلمة فى الكتاب المتلو « الحمد لله رب العالمين » تعبيرا صادقا عن هذه الحقيقة .

وبهذين الكتابين كمل انعام الله على الانسان ، وعظم فضله واتسع احسانه ، وبهما هيىء له أن يصـل الى كماله المادى عن طريق الانتفاع بما سخر له فى كتاب الكون ، والى كماله الروحى عن طريق ما أرشد اليه كتاب الوحى فى العقيدة والسلوك .

وقد أنزل ـ فى لفت الانظار الى الكتاب المتلو ، وتقرير انه الفاصل بين الحق والباطل ـ سورة الفرقان بكلمة التمجيد والتعظيم « تبارك الذى نزل الفرقان على عبـده ليكون للعالمين نذيرا » . وأنزل ـ فى لفت الانظار الى الكتاب الكونى مظهر الربوبية المادية ـ سورة الملك بتلك الكلمة نفسها « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » . ثم ساقت السورة جملة من مظاهر سـلطانه وقدرته وتفرده بالملك والتدبير فى الانسان ، وفيما يحيط به من عالم علوى وسفلى ، فذكرت ان الموت والحيـاة يتواردان على الانسان ليظهر بهما اتجاهه ويعرف سلوكه ، وهل هو من الشاكرين لنعمة الحيـاة ، المقدرين لرهبة

الموت ، أو هو من الكافرين بنعمة الحياة ، اللاهين عن عاقبة الموت « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . وذكرت فى العالم العلوى ، انه خلق سبع سـموات هى مدارات النجوم السيارة التى كانت معروفة للعالم اذ ذاك ، يعلو بعضها بعضا ، هى غاية فى الاحكام والاتقان ، لا يرى فيها شىء من الخلل مهما تكرر النظر اليها ، وتردد البحث فيها ، كيف وهى خاضعة لناموس الهى ثابت ، لا تشذ ذرة فيها عن سلطانه الا اذا شاء واضعه وممسكه .

نظام محكم

ثم أرشدت الى ما فى هذا النظام المحكم من وجوه المصالح التى تعود على العباد بالنفع العام ، فهى زينة بمصابيحها ، تتمتع النفس بجمالها ، وهى منار يهتدى به الانسان فى ظلمات البر والبحر ، وهى قذائف حق يرمى بها هؤلاء الشياطين ، الذين يعملون جهدهم على اخراج الناس من نور الايمان الى ظلمة الكفر « الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ، واعتدنا لهم عذاب السعير » .

ثم تصف السورة هذه النار التى أعدت للمفسدين بجملة أوصاف ، تدل على شدتها ، وتغيظها منهم وحقدها عليهم ، كما تدل على تأنيب خزنتها لهم ، وتهكمهم بهم ، وعلى اعترافهم أنفسهم بذنوبهم ، واهمال عقولهم ، وزيادة فى فجيعتهم ترشد السورة بازاء ذلك الى فضل الله على المؤمنين ، واكرامه اياهم ، واقرأ فى ذلك : « اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور .. » الى

آخر الآيات . فتذكر من مظاهر سـلطانه ونعمته فى العالم السفلى تهيئة الارض للسير والزراعة ، والتقلب فى جميع أرجائها ، ثم تنذرهم بالقدرة على تغيير تلك المعالم الارضية بالخسف والزلازل ، وبارسال الرياح التى تقذفهم بالاحجار ، فتكدر عليهم صفو الحياة .

ثم تلفت نظرهم الى آية فذة فيما يرون من الطير ، وهو يحلق فى الجو باسطا أجنحته ، ثم يقبضها وليس لها من حافظ سوى قدرة الله المنبعثة عن رحمتـه ، « ما يمسكهن الا الرحمن » . ثم ينـكر عليهم ، ان يخطر فى نفوسهم بعد تلك الدلائل الواضحة ، ان لهم من دون الله من ينقذهم أو يرزقهم : « أم من هذا الذى يرزقكم ان امسك رزقه ؟ » ثم يحـاكمهم الى العقل والضمير : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » .

نعم تستوجب الشكر

ثم بعد ان تمتن عليهم بنعمة الخلق ونعمـة السمع والبصر والافئدة ، تلك النعم التى كفروا بها وطمسوها على أنفسهم ، فلم يدركوا بها حقا ، ولم يستعملوها فى أهدافها ، تختم السورة بذكر المبدأ والمعاد ، ذلكم المعاد الذى يستبعدونه ويستهزئون به كما ذكر لهم ،ويقولون: « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ » ، وتلقن النبى صلى الله عليه وسلم حجته عليهم : « قل انما العلم عند الله ، وانما أنا نذير مبين » فلا تسألوا عن وقته فانه لا علم لى به ،وليس علمه من مهمتى ، وانه واقع بكل لا محالة سترونه بأعينكم : « فلما رأوه زلفة « قريبا »

سيئت وجـوه الذين كفروا وقيل هـذا الذى كنتم به تدعون » .

وأخيرا تقرر الا طريق للنجاة سوى الايمـــان بالله والتوكل عليه ، فهو صاحب المنع والعطاء : «قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ، فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم « مادة حياتكم » غورا « غائرا » فمن يأتيكم بماء معين ؟ » .

ســــورة القــلم

ضلال

* كلما كان الناس فى غرقى فى الشهوات والاهواء ، مسلمين أنفسهم للاوهام والاباطيل كانت دعوة الحق فى نظرهم هى دعوة الباطل ، ودعوة الخير هى دعوة الشر ، ودعوة الجنون . ومن هنا كان أول ما قوبل به النبى صلى الله عليه وسلم حينمـا دعا قومه الى توحيـد الخالق ، ونبذ ما هم عليه من الفسوق وعبادة الاصنام : « انك لمجنون » والجنون عند أرباب الشهوات هو التزام جادة الحق والخضوع لواضح البرهان . والعقل عندهم هو مسايرتهم فيما نشئوا وورثوه من الاهواء والخرافات .

وقد نزلت سورة القــلم فى فجر الوحى ، تكشف الغطاء عن أعينهم ، وتبصرهم بحقيقة محمد وما يدعوهم اليه ، فلفتت الانظار الى أن الذى اجتباه ربه وكرمه وحياه بنعمة الحق والذكاء والفطنة ، ثم بنعمة النبوة والرسالة ، ثم يعظم الاجر على القيام بمهمته ، ثم كمله بالخلق الذى به يشهدون وله يعرفون ، محال أن يكون على ما يصفون .

ثم لم تشأ أن ترسل تلك الحجة المقنعة بنفسها ارسالا ، بل أبرزتها فى اطار من القسم بأساس دعوته وهو العلم

القاضي على جهـالة النفوس وطغيانها ، وذكرته بأهم أدواته من القـلم والـكتابة وبذلك رجعت به الى أول ما أوحى الله به اليه : « اقرأ وربك الاكرم الـذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . ثم طمأنت الرسول بأنه سيرى بعينه ، ويرون هم أيضا بأعينهم أى الفريقين قد زل عقله وحاد عن طريق الحكمة ، ووقع فى ضلال الجنون والفتنة ، وبذلك كله تبدأ السورة : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

ثم تعود السورة وتؤكد للنبى فى آخرها أن اتهامهم اياه بالجنون لم يكن الا اثرا من آثار حقدهم عليه حينما سمعوا منه تلك الدعوة التى ستزلزل سلطانهم وتقضى على عزتهم التى تخيلوها ، وقد سيق هذا المعنى فى أسلوب يصور شدة حنقهم عليه : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » . ثم تنبه الى حقيقة القرآن وما يدعو اليه بما يدل على أن حقيته غاية فى الوضوح والظهـور ، وانه راسخ فى النفوس والفطر ، وما الدعوة الا تذكير وايقاظ: « وما هو الا ذكر للعالمين » . وبذلك تكافل آخر السورة مع أولها فى ردتلك الفرية واقتلاع جذورها بالواقع الصحيح .

تحذير

وتتجه السورة فيما بين ذلك الى تحذيره صلى الله عليه وسلم من الميل اليهم واطاعتهم فيما يريدونه عليه . كانوا يساومونه بالمال والسلطان ان هو ترك دعـوته ، فحذرته اطاعتهم على وجه عام ، ثم نفرته من اطاعتهم بخلال سيئة عرف بها بعض زعمائهم ، وتأباها طبيعته

النقية الطـاهرة : « فلا تطع المـكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل خلاف ، مهين ، هماز ، مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد ، أثيم ، عتل ، بعد ذلك زنيم » . ثم تنبه الآيات الى ان سبب كفرهم هو طغيانهم بالمال والبنين ، واعتمادهم عليها ، واغترارهم بها فى عزتهم ، ثم تؤكد عاقبتهم . وان الله سيشهر بهم،ويفضح أمرهم ، ويلصق بهم علامة الذل والصغار بعلو سلطان الحق ، وادلة سلطانهم : « سنسمه على الخرطوم » .

ابتلاء بالمال والبنين

وتبين لهم ان الاموال والبنين لم تكن الا اختبارا يتبين منه صلاح النفوس وفسادها ، وفى سبيل ذلك تذكر لهم قصة أصحاب البستان « الجنة » الذين ضنوا بحق الفقراء فيها ، قالوا نحن به أحق وأولى ، واتفقوا على جنيهـــــا فى وقت مبكر غير الوقت الذى كان يعرفه الفقراء : « ولا يستثنون » .

وبعد أن بيتوا النية على ذلك ، وذهبوا الى جنتهم ، وجدوها قد احترقت وسقطت ثمارها ، فوقعـــوا فى حيرة حتى ظنوا انهم ضلوا طريقها ، ثم تبين لهم الامر ، وانها هى هى ولكن قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فوقعـــوا فى اللوم وأدركوا انهم بنيتهم كانوا ظالمين : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قـــالوا ياويلنا انا كنا طاغين » . فعادوا الى ربهم ورجوا أن يغفر لهم ، وان يبدلهم خيرا من جنتهم : « انا الى ربنـــا راغبون » . ثم تذيل القصـــة بأن سنة الله فى هؤلاء المستكبرين ، وفى كل أرباب النعم هى سنته فى أصحاب

الجنة ؛ ان تداركوا خطأهم غفر الله لهم ، وان استمروا على طغيانهم فهذا جزاؤهم في الدنيا : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

زعم باطل

ومن عادة المفتونين بأموالهم زعمهم ان لانفسهم مكانة عند الله أعظم من مكانة الفقراء الذين يهرعون الى استجابة الدعوة فتأخذ الصورة في تبكيتهم على هذا الزعم ، وتبين لهم انه زعم ليس لهم فيه مستند ، فلا الكتب نصت عليه ، ولا العقل يقضى به ، ولم يأخذوا به عند الله صكا ولا عهدا ، واذن فليس لهم من دونه أنصار يحفظونهم من أمره ، يوم يشتد الكرب ، ويكشف عن ساق « ديدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة ابصارهم ، ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون » . ثم تخفف السورة وطأة تكذيبهم على النبى ، وتطلب منه أن يفوض أمرهم اليه سبحانه ، وترشده الى ان الانعام عليهم لم يكن لمكانتهم عنده ، وانما كان املاءا واستدراجا ، ثم تأمره بالصبر على كيدهم وتحذره الانفعال النفسى مخافة أن يقع فيما وقع فيه اخوه يونس ، حينما غضب من قومه وتركهم فابتلاه الله بابتلاع الحوت اياه وفى كله تقول السورة : « افنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » . « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم » .

عظة

أما بعد :

فجدير بأرباب الشهوات والاهواء ، الحاقدين على الحق وأهله ، أن يطهروا قلوبهم من بواعث الحقد ومكايدة الحق ، احتفاظا بانسانيتهم وحرصا على مزاياهم التى كرمهم الله بها .

وجدير بأرباب الاموال الذين يضنون بحق الفقراء فيها وقد أنعم الله بها عليهم ـ أن يتأملوا قصة أصحاب الجنة فيخشوا غيرة الله على عبادة الفقراء .

وجدير بأرباب الدعوة الى الحق ، الذين يعملون على الخير والصلاح ، الا يقتربوا من المبطلين أرباب الفساد والخلق السيىء الذى يمنعون به الخير ويفسدون به ما بين الناس من روابط المحبة والاخاء ، عليهم أن ينشئوا أبناءهم على خلال الخير والفضيلة . وجدير بهم أن يتذرعوا فى كل ذلك بالصبر والالتجاء الى الله حتى يسعدوا أنفسهم ومجتمعهم بدعوة الخير والفضيلة، ويركزوا الحق الذى رضيه الله لعباده وبينه فى كتبه ، وكلف رسله بتلبيغه والدعوة اليه . ونسأل الله التوفيق والهداية .

ســـورة الحاقــة

* وجهت سورة الملك أنظار القوم الى بعض ما فى الكون من دلائل الوحدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة؛ وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد ، وعن بطلان التهمة التى وجهها اليه القوم حقدا وغيظا ، وهى تهمة الجنون ، وحذرته أن يلين لهم ، أو أن يسارع اليه الغضب فيكون كأخيه يونس بن متى ، وضربت لهم الامثال فى عاقبة الاغترار بالاموال والبنين ، ولم يفتها أن تعرض للتهديدات بالبعث ، ودار الجزاء .

ثم تجىء سورة الحاقة فتضع الحـــد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة ، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شأنها ، وأنها بلغت فى عظم الشأن أن يقف الانسان أمام انبائها وأهوالها مبهوتا متســـائلا : بل بلغت مبلغا يتسامى عن الادراك والاحاطة « الحاقة » ما هى ؟ وما ادراك ما هى ؟ استفهام يملأ النفس روعة ورعبا ، ويقف بها على شاطىء بحر متلاطم الامواج ، لا يدرك البصر أطرافه ، فيقف حائرا مضطربا لا يملك سوى أن يقول ما هذا ؟ ما هذا ؟

★ سورة الحاقة

معنى الحاقة

وكلمة « الحاقة » ككلمات القارعة والواقعة ،والطامة، والصاخة ، أعلام بالغلبة على القيامة ، ولكل منها دلالة على معنى من معانيها ، وأثر من آثارها . فهى حاقة فى ذاتها ، وهى حاقة لانبائها ، وهى بمقوماتها واحداثها تقرع القلوب وتصك الاسماع ، وهى التى بعد هذا كله كان انكار الامم السابقة لها سببا فى فسادهم وطغيانهم، وفى التنكيل بهم على وجه لا تزال آثاره وأخباره تنبىء بما أصابهم من الهلاك والدمار ، فهذه ثمود ، وتلك عاد، وهذا فرعون ومن قبله من الطغاة ، وهذه « المؤتفكات » القرى التى أؤتفكت وانقلبت على أهلها بفعلتهم الشنعاء : قرى قوم لوط . هؤلاء جميعا أنكروها ولم يعملوا على حسابها ، فاندفعوا فى طغيانهم واثمهم ، فأتى على الكل ما طوى صفحتهم من الوجود ، وجعلهم أثرا من بعد عين « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » .

وقد ذكرت السورة بالطوفان الذى أخذ قوم نوح ، مصرحة بجانب النعمة فيه على العرب وهى حمل أصولهم فى السفينة « انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » . ومعنى هذا انه كان جديرا بالعرب — وهم أبناء الذين سلموا من الطوفان — أن يذكروا تلك النعمة ، ويدعو العناد والتكذيب : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

انـــذار

وبعد ان فخمت السورة من شأن الساعة ما فخمت، وقدمت للقوم النذر التاريخية التى اصابت المكذبين بها ، أخذ تصور أحداثها ، من مقدماتها الى نهـــــايتها ، فصورت بالنفخ فى الصور انحلال النواميس التى تمسك العالم علويه وسفليه « وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . ثم تصور عظمة السلطان الالهى بمثل ما يعهده الناس فى سلطان القـــادرين الاقوياء : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وحسبنا أن نؤمن بما تدل عليه العبارة من عظم السلطان على حسب ما يعهده الناس فى دنياهم . اما كيف تقف الملائكة على الارجاء ، أو كيف يحمل العرش ، او من هؤلاء الثمانية ؟ أو ما حكمة هذا العدد ؟ فهذا كله مما لا ينبغى أن نخوض فى حقيقته ، وانما هو روعة القضاء الالهى ، والحكمة القاهرة .

جزاء المؤمن

ثم تشير الآيات الى العرض على دار القضاء التى تحدد فيها المسئوليات : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . ثم تشير الى الحكم ، فيصدر لفريق بالنجاة، وعلى آخر بالادانة ، وان الاولين يسلمون صك البراءة بأسلوب التكريم : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ، انى ظننت انى ملاق حسابيه » .

وأن الآخرين يسلمون صك الادانة ـ على العكس ـ بالاهانة ، معترفين بعملهم الكاذب وغرورهم الفاسد :
« وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابية ، يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عنى مالية ، هلك عنى سلطانية » . وبعد أن يصدر الحكم يجىء دور التنفيذ فيكون المؤمنون « فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية » .

جزاء المكذب

اما المكذب المجرم فيقال للزبانية : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . ثم تبرز الآيات حيثية الحكم على هذا المجرم : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » . وحسب المسكين أن يكون اهمال أمره وعدم الحض على اطعامه عديلا فى كتاب الله وقضائه للكفر بالله .

وبعد أن يتم تصوير مراحل القضاء الالهى فى الفصل بين المؤمنين والمكذبين تنتقل السورة الى ما يقرر الحق فى النفوس ، وتبرز قسم الله ـ الذى ليس فى حاجة الى القسم ـ بالعالم غائبه وشاهده ، على ان القرآن قول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، ولا بقول كاهن . وانما هو تنزيل من رب العالمين .

ثم تعبر السورة عن موقف الالوهية بالنسبة لمحمد على فرض انه كما يزعمون قد افترى القرآن على ربه :

« ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . والمعنى لقضينا عليه من ساعته ، وقطعنا منه عرق الحياة ثم لا يوجد من يدفع عنه ، أو يمنعها من تنفيذ ارادتنا فيه ، وموقفنا منه ـ وقد افترى علينا ـ هو موقفنـــا منـكم وقد كذبتموه في رسالته .

اثر القرآن في النفوس

ثم تختم السورة ببيان اثر القرآن فى النفوس ، وانه تذكرة للقلوب الصافية المستعدة للخير ، وحسرة على الاخرى التى أفسدت استعدادها بالشهوات والاهواء ، « وانه لتذكرة للمتقين » . « وانه لحسرة على الكافرين ». ثم تؤكد ان القرآن هو الحق الثابت الذى لا شبهة فيه وتأمر الرسول بالتزامه واهمال المكذبين ، معتصما فى ذلك بتنزيه الله الذى أحاطه بعنايته ، والذى لا يرجى ولا يخاف سواه : « وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » .

سورة المعارج ★

* كان من أساليب الدعوة الى التوحيد والبعث الانذار المتكرر للمكذبين بعذاب يوم القيامة ، وكثيرا ما طوقهم القرآن ـ على نحو ما رأينا فى السورة السابقة « الحاقة ما الحاقة » ـ بأنباء العذاب الاخروى والمحاكمة أمام القضاء الالهى .

عذاب ليس له دافع

وكان القوم يقابلون هذا الانذار بالانكار والاستهزاء والسخرية ، ولقد وصل بهم الامر فى ذلك الى حد ان استعجلوا العذاب ، والى حد ان قال قائلهم « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

وقد جاءت سورة المعارج ، بعد أن حققت سورة الحاقة أنباء البعث والقيامة ، تكشف عن ضعف عقلية القوم ، اذ كانوا يطلبون وقوع العذاب الذى به يوعدون، بدل أن يطلبوا التوفيق الى الايمان فيكون ايمانهم وقاية لهم من ذلك العذاب وتؤكد أن العذاب واقع

★ سورة المعارج

بهم ليس من شك ، وليس لهم من ينجيهم منه ، وليس له من دافع يدفعه عنهم ، فمشيئة الله نافذة فيهم ، وعذابه لاحق بهم ، وترشدهم الى ان طول الامد ، الذى لم يظهر فيه شيء منه ، انما هو طول نسبى فى أنظارهم فقط . أما فى واقعه ، وفى تدبير الله ، فهو يوم واحد، هو يوم الدنيا ، ومرحلة واحدة ، هى مرحلة التدبير لشئون الدنيا ، ذلكم التدبير الذى اقتضت حكمة الله أن يكون بواسطة جند يترددون بينه وبين خلقه على معارج ومصاعد فى يوم كان مقداره فى أيامكم خمسين ألف سنة . وما هى الا أن تمضى مرحلة التدبير ، ومرحلة التكليف ، وتأتى مرحلة الحساب وتحديد المسئوليات ، واذن فلا تكترث يا محمد بموقفهم عنك واصبر صبرا جميلا .

العروج

وقد عبرت الآية عن مرحلة التـدبير بعروج الملائكة والروح الى الله فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وما علينا الا أن نؤمن بما تدل عليه الآية من قصر أمد الدنيا فى نظام الله ، وليس علينا أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقة شيء استأثر الله بعلمه .

ويلتقى هذا التصـوير مع مثله فى آية اخـرى « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

وفي آية ثالثة « يدبر الامر من السماء الى الارض ثم تعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون » .

فهم واجتهاد

والقصد من كل ذلك أن وقع العذاب الذى يسألونه يعقب ذلك اليوم الذى يتردد فيه الملائكة بين الخالق والخلائق ، وهو البقية من يوم النشأة الاولى . وقد جاء على لسان الرسول « بعثت انا والساعة كهاتين ، وأشار الى السبابة والوسطى » واختلاف العدد يدل على مجرد الكثرة والمبالغة في وصف الدنيا بالطول بالنسبة اليهم لا بالنسبة لنظام الله وأيامه ، وقد أفصحت السورة عن هذا المعنى « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » .

من علامات القيامة

ثم أخذت السورة تذكر علامات القيامة في السماء وانها ستكون كالمهل « مائع الزيت » ، وفي الجبال وانها ستكون كالعهن المنفوش « الصوف المنفوش » : وفي الانسان وانه سيتلهى فيه كل امرىء بنفسه : « ولا يسأل حميم حميما » . ثم تترقى في وصف هول ذلك اليهم بأن المجرم يتمنى فيه لو يفتدى من عذابه بأقرب الناس اليه وأحبهم عنده ، ثم تقطع عليه أمل الفداء ؛ وتصور لحوق العذاب به يطمع النار فيه : « انها لظى ؛ نزاعة للشوى ؛ تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . ثم تشير الآيات الى الانسان في انكار الحق ومحبته

الجمع والادخار اذا لم يعتصم بهداية الله ، وان منشأ ذلك فيه غلبة الهوى عليه « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » .

ثم تذكر ان علاج ذلك الشأن انما هو القيام بحق الله وحق الفقير السائل والمحروم ، وفى التصديق بيوم الدين ، وفى الخوف من عذاب الله ، وفى حفظ الاعراض والامانات ، وفى الشهادات والمحافظة على الصلوات ، وانه بتلك الخلال الفاضلة تتحقق عناصر الشخصية الناجية التى يكون أهلها : « فى جنات مكرمون » . ولو ان هؤلاء سلكوا هذا السبيل لكان مصيرهم الى النعيم ، ولكنهم رفضوا أن يطهروا قلوبهم وأخذوا يسخرون بالحق ، ويفترون على الله ، يزعمون لانفسهم استحقاق الجنة ، بل أحقيتهم بها : « أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم كلا » .

ثم تختم السورة بتوعدهم ، وتوجيه النبى الى عدم الاكتراث بهم : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » . وعندئذ يكشف لهم عن ساق ، وانهم كانوا على باطل ، ثم تصف خروجهم من القبور فى ذلك اليوم ، مسرعين ملبين دعوة البعث ، مقهورين غير مختارين ، وتذكرهم فى حالتهم هذه بحالتهم فى فى دنياهم حينما كانوا يخرجون من بيوتهم متسابقين الى أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » .

الفصل العاشر :

ســـــــــور

نوح ـ الجن ـ والمزمل والمدثر ـ والقيامة

ســـورة نـوح

* قوبل النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن دعا الى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شديدة من الانــكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والســـخرية ، وقد اقتضت الحكمة الالهية ان يكون من أساليب الدعوة التذكير بما أصاب الامم الخالية جزاء الانكار والتكذيب .

وفى هذه الســورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم الى مثل دعوته ، وقوبل منهم بمثل ما قوبل به ، تثبيتا له على دعوته ، وتسلية له فيما يصيبه ، وتهديدا لقومه – ان استمروا على العناد والاستهزاء – بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد .

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام ، وهي رابطة البنوة ، ففي التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كان فيها من النقمة التي أخذت المكذبين ، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التي انقذ بها نوح ، ومن آمن معه، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا فى الوجـود

★ سورة نوح

وتكونوا شعوبا وقبائل وانتشروا في الارض ، والى هذا تشير آية الحاقة : « لما طغى الماء حملناكم في الجارية » .

وقد تكررت في القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسلية الرسول وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام . وعنيت هذه السورة المسماة باسمه بأمور :

دعوة نوح وأصولها

أولهما : بيان دعوة نوح ، وانها ترتكز على اصول ثلاثة : عبادة الله وحده ونبذ عبادة الاصنام .

تقوى الله باجتناب المعاصي التي تفسد الاخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات .

اطاعة الداعي فيما يأمر به عن ربه .

وهذه الاسس الثلاثة هي دعوة كل رسول جاء بعده ، وهي مصاعد الحياة الطيبة تعلو الامم اذا تمسكت بها ، وتسقط اذا انحرفت عنها : « انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » .

فوائد الدعوة

ثانيهما : بيان فوائد هذه الدعوة التي تعود عليهم بخيرى الدنيا والآخرة اذا قبلوها وآمنوا بها . والآيات ترشد الى أنهم ينتفعون بها في نواح ثلاث :

ناحية الروح ، تمحو عنها ما اقترفته من الذنوب « يغفر لكم من ذنوبكم » .

ناحية الاجل ، فيها يستوفون أجلهم الطبيعى دون أن يعاجلهم العذاب المقدر عليهم اذا استمروا فى الكفر والمعاصى « ويؤخركم الى أجل مسمى » .

ناحية الرزق ، بفتح أبوابه وتوجيههم نحو العمل فى الحياة ، والانتفاع بما سخر لهم فيها : « يرسل السماء عليكم مدارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

سبل الدعوة

ثالثها : أن نوحا سلك معهم فى الدعوة السبل الطبيعية لكل دعوة جديدة : أسر وأعلن ، وجمع بين الاسرار والاعلان ، ومع كل هذا : « جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » .

دعاهم ببيان ما فى الدعوة من الخير الروحى والمادى ثم دعاهم بلفت الانظار الى آيات الله ونعمه فى أنفسهم وفى الخلق كله : « ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الارض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » .

لفت أنظارهم بعد أن هز عواطفهم الى برهان العقل فنبه الى خلق أنفسهم والاطوار التى مرت بهم ، ونبه

الى خلق ما يحيط بهم من عالم علوى وسفلى على وجه يكفل لهم خير الدنيا وطيب الحياة .

ومن دقائق الاشارات العلمية فى نظام الكون أن الآيات لم تجعل الشمس فى السموات وهـذا يتفق تماما مع ما عرف أخيرا من أن الشمس مركز النظام الشمسى ، وأن الكواكب تختفى بها ، وان القمر له مركز فيهـا ومعدود منها : « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » .

عناد واعراض

رابعها : انه على الرغم من هذه الطرق المختلفة ،وتلك البراهين الواضحة ، نبذ قوم نوح دعوته ، واشتدانكارهم لها ، وقد صور نوح اعراضهم ، مرة بوصف فى أنفسهم ، سدوا آذانهم وتغطوا بثيابهم ، ومرة بالشكوى الى الله الذى أرسله بهذه الدعوة ، وأشار الى سبب اعراضهم : وهو اتباع الرؤساء المفتونين بالاموال والاولاد : « قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا » .

ثم كشف عن دعوة الباطل التى خدعهم بها هؤلاء الماكرون : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » .

وهنا أبرز أسماء الآلهة التى عبدوها من دون الله ، وهى أسماء لتماثيل كواكب اعتقدوا أنها منبع الخير ،

او أسماء لقوم صالحين اطلقوها على تماثيلهم التي اتخذوها معبودات وآلهة من دون الله ، ولعل هذه الفترة كانت مبدأ زلة العقل البشرى فى اتخاذ التماثيل وعبادتها ، ومنه انحدر تقديس البشر من الانبياء والاولياء بمـــا يقدس به خالق البشر . ومن هنا حظر الاسلام صنع التماثيل واقامتها بفكرة التقــديس والعبادة ، وبذلك اجتث جذور الوثنية ، ونعى على المستغيثين والمستعينين بغير الله .

عاقبة المكذبين

خامسها : بيان العاقبة التى صار اليها القوم جزاء اعراضهم عن سماع الحق « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » . وقد عرضت سورة هود الى حادثة الطوفان التى أغرقت القــوم : « واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . ثم أشارت الآيات الى حكمة الله فى أخذ الجبـــارين المستكبرين وهى ترجع الى ارادة تطهير العالم من جراثيم الشر والفساد : « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » .

وازاء هذه العاقبة السيئة التى تقطع على الجبارين حياتهم تشير الآيات الى العاقبة الطيبة لعبادة المؤمنين « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا » .

أما بعد :

فتلك قصة نوح كما وردت فى سورة نوح ، قصها الله على كفار مكة ، وعلى جميع الناس ، وهى مثال حى ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل فى كل زمان ومكان ، وناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من أصل الطبيعة وانما هو من خداع المستكبرين الماكرين ، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لابد أن يعلو صوته وينتشر فى العالم ضوؤه ، ويعم الكون خيره .

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك ، وسار على سنتك فى الدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم .

سورة الجن

* فطر الناس على ان فى العالم خلقا آخر غير الانسان ، يعرفونه بآثاره ولا يرون أشباحه ، ولا يعرفون حقيقته ، وقد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل ، كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق ، فذكرت الملائكة ، وذكرت أعمالهم ومهامهم ، ووصفتهم بالطاعة الدائمة ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

الجن والانس

وذكرت الجن وجعلتهم نوعا مقابلا للانسان يندرجان تحت عنوان « الثقلين » ، وخاطبتهم وتحدثت عنه : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا . لا تنفذون الا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » « آدخلوا فى أمم قد خلت من

★ سورة الجن

قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها » . « ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » .

تكليف ومسئولية

وهكذا نجد القرآن قد أشرك الانس مع الجن فى المسئولية والمؤاخذة والمصير ، ووضعهما فى اطار واحد ، وتحدث عنهما بحديث واحد ، وشرع فى وجوههم جميعا حجة واحدة : « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

حقائق ثابتة

واذن فليس فى وجود الجن شك ، وليس فى تحميلهم شرائع الله ورسالاته شك ، وليس فى مسئولياتهم ومؤاخذتهم بالتقصير شك ، وليس فى استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك ، فكل هذا حق لا ريب فيه ، ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء . وان محاولة تأويل شىء منه تحريف للكلم عن مواضعه ، وسلخ للالفاظ عن

معانيها ، وضيق عطن من المولعين بانكار ما لا يدركه الحس .

استجابة الجن للاسلام

هذا وقد قص الله علينا فى موضعين من كتابه استماع نفر من الجن للقرآن ، وان هذا الاستماع كان له أثره البالغ فى نفوسهم ، صحح عقائدهم فى الله ، وطهر نفوسهم من الاوهام والخرافات المتعلقـة بهم ، وكملهم بالمعارف الصحيحة ، واندفعـوا به الى انذار قومهم فأرشدوهم الى الحق فى العقيـدة ، والى الحق فى الرسالة ، والى الحق فى علاقتهم بالانس ، والى الحق فى معرفتهم الغيب ، أجمل كل ذلك فى قوله تعالى من الاحقاف : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجـركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين » .

وهذه سورة الجن تفصل ما أجملته سورة الاحقاف من مبادىء الخير والفضيلة التى أدركوها من القرآن ، وتصحح على لسانهم الاخطاء التى كانوا عليها وأدركوا الحق فيها مما سمعوا من القرآن .

ولنصغ اليهم وهم يلقنون عقيدة التوحيد وتنزيه الرب عن اتخاذ الصاحبة والولد : « ولن نشرك بربنا احدا وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

ولنصغ اليهم وهم يضيفون فساد عقائدهم الى سفهائهم الذين يكذبون على الله .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم عمن يعتقدون من الانس أن للجن سلطانا عليهم فيعوذون برجال منهم وضعوا فى نفوسهم ان لهم سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من أذاهم ، وقد درج الناس على هذا الوهم ، واستغل به كهنتهم ضعاف العقول منهم باسم العلاج و « التحويطة » وساعدهم على ذلك طائفة من المتسمين بسمة العلم والدين وأيدوهم بحكايات وروايات موضوعة — وقد يشاركونهم فى الاستغلال والدجل — حتى أفسدوا على الناس عقائدهم وصرفوهم عن العلم النافع والعمل المفيد . فجاء القرآن يقرر فساد ذلك كله على لسان الجن أنفسهم : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم فى العقيدة الفاسدة . عقيدة أن الجن يعلمون الغيب ، وان أناسا يستخدمونهم فى ذلك فيعلمون منهم ما تسوقه المقادير الالهية من شر فيتقى أو خير فيرتقب . ثم يعلنون أن الغيب لله وحده ، وأن القرآن قصر علم الغيب على الله

فلا يعلمه أحد سواه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » . « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب » . « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الارض أم اراد بهم ربهم رشدا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون عن قدرة الله ، وعن العاقبة الطيبة لمن يؤمن بالله ، وعما كان بينهم من الاختلاف فى العقيدة ، وعن مصير الجاحدين الظالمين : « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .

توجيهات

ثم تختم السورة ـ بعد حديث الجن الى قومهم بما سمعوا من الحق ـ بجملة توجيهات للنبى صلى الله عليه وسلم فتأمره أن يتمسك بدعوته ، وأن يعلن عجزه وعدم قدرته على الخير أو الشر ، وان السلطان عليه وعلى الناس لله وحده ، وانه لن يجد من دونه ملجأ يلتجىء اليه ، وانه مبلغ لرسالة ربه فقط ، وانه متى ينزل العذاب الذى توعدهم الله به ان لم يؤمنوا وانه من الغيب الذى لا يعلمه الا الله ، وان الله لا يطلع على غيبه أحدا من خلقه الا من ارتضى من رسول فانه يطلعه على ما أراد ثم يحفظه بجنده الالهى حتى يبلغ رسالته : « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد بلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » .

هذه قصة الجن فى استماع القرآن والتأثر به وهداية قومهم اليه ، فهل تقف الشهوات والاهواء بالانس دون أن ينتفعوا بالقرآن ـ كما انتفع به الجن ـ وهم من جلدة الرسول ، تجمعه واياهم بيئة واحدة ، ورحمة واحدة ، ونشأة واحدة ، وفى الحق ان فى قصة الجن وتأثرهم بالقرآن على هذا النحو هزة عنيفة لانسانية الجاحدين المستكبرين من الانس ، وفيها فوق ذلك من العبر مايلقم الدجالين فى كل عصر ومكان حجر الحق الذى يفتت أمعاءهم ويذهب بكيدهم ويفسد عليهم أمرهم فى التسلط على عقول الضعفاء من الناس فاعتبروا يا أولى الابصار .

سورة المزمل والمدثر *

ركزت سورة الملك عقيدة التوحيد ، وسورة القلم عقيدة الرسالة المحمدية ، وسورتا الحاقة والمعارج عقيدة البعث ودار الجزاء ، ثم أقامت سورة نوح الحجة التاريخية الواقعية على صحة الدعوة ، كما أقامت سورة الجن الحجة البالغة على ما احدثه القرآن من عظيم الاثر فى نفوس الجن ، وانهم فهموه وانتفعوا به وأرشدوا قومهم اليه ، وبذلك كله تركزت الدعوة فى ذاتها ، وفى آثارها ، ولكن كل ذلك لا يكفى فى تقبل الناس لها وانتفاعهم بها ، بل لابد لها مع هذا من لسان بين ، يحمله قلب قوى ، يدعو اليها ويعمل على نشرها والاقناع بها . وأن الحق لابد له من قوة تحمله وتحميه ، وهو لا يقوم فى ظل الراحة والسكون ، ولا فى ظل العزلة والانكماش ، وانما يقوم :

أولا : باعداد النفس بتمرينها على تحمل المشاق وتكميلها بالفضائل التى ترسل عليها أشعة الانوار الالهية فتضىء لها السبل ، وتمدها بقوة تقتلع منها بواعث الحيرة والاضطراب ، وتزيح من أمامها العقبات .

★ سورتا المزمل والمدثر

وثانيا : برسم المنهاج الواضح للدعوة الذى يأخذ بالنفوس من طريق الشر الى طريقها الممهد ، وقد جاءت السورتان : « المزمل والمدثر » ترشدان الى ما يجب من هذين الامرين لينجح الداعى فى دعوته ، ويقوم بمهمته . والكلمتان معناهما : « المتلفف بالثياب » وقد يكون ذلك اشارة الى حالة حقيقية لجأ اليها النبى فى بعض ظروفه المتصلة بمفاجأة الوحى له ، أو بموقف القوم منه ، وقد يكون رمزا لحالة الدعة والسكون والتفكير العميق فى وسائل الدعوة التى كلفها ، وعلى كل فالنداء بهذا الوصف ينهض الهمة ، ويوقظ النفس ، ويحرك بواعث العمل ويضاعف التهيؤ لما يلقى من تعليم .

يا أيها المزمل

وقد تضمن النداء الاول : « يا أيها المزمل » نهيه صلى الله عليه وسلم عن الدعة والسكون ، كما يكون من شأن المتهيب لعمل لم يعهده ، ولا يعرف قدرته عليه ، وتضمن ارشاده الى تقوية قلبه عن طريق قيام الليل ومناجاة ربه واستشعار عظمته ، فيستمد بهما الحول والقوة ، والى تلاوة القرآن وتدبر الوحى الذى يلقى عليه تدبرا يملأ روحه ايمانا وقوة ، والى مشقة المهمة وصعوبة الدعوة لكى يبذل لها ما تستحق من العناية ، ولتهون على نفسه الصعاب حينما تصادفه وتتصل بدعوته ، والى توزيع الاعمال على الاوقات ، فيقوم فى كل وقت بالعمل الذى يكمل فيه وينضج ، فالليل للعبادة والقراءة والذكر ، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للارشاد

والتعليم ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : « يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا .. الى قوله : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » .

يأيها المدثر

ثم يجىء النداء الثانى : « يأيها المدثر » فينزعه مرة أخرى من هموم نفسه وحيرته فى هداية قومه . يطرد عنه اليأس ويوجهه الى العمل ومباشرة المهمة . « قم فأنذر » ثم يجمع له أطراف المهمة فى كلمات قصيرة هى فى عظم معناها وضخامته أشبه بالقنابل الثقيلة تقذف معسكرات الشرك والطغيان ، وتبيد جراثيم الفسوق والعصيان . « وربك فكبر » لا يكن فى قلبك مثقال ذرة من خوف غيره أو عظمة سواه ، وهذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الوهم « وثيابك فطهر » وهذا تحرير للنفس من قيود الاخلاق الذميمة » « والرجز فأهجر » وهو تحرير للجوارح من قيود المعاصى والذنوب . واذا كان الانسان عقلا ونفسا وجسدا ، وكان كل فساد او صلاح منشؤه العقل او النفس أو الجسد ، فتلك ارشادات ثلاثة تطهر القوى الثلاث من كل شر ، وتجعلها خالصة لكل خير .

ولما كان ما تضمنه النداءان ، من وجوه الاعداد النفسى ، ونواحى العمل فى مهمة الرسالة ، يحتاج فى تحققه الى استعانة خاصة وجهاد قوى ، جاء عقب كل منهما فى السورتين تخصيص الصبر من بين الاخلاق بالذكر والعناية ، فتقول الاولى بعد الارشاد الى وجود

الاعداد « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا »
وتقول الثانية بعد الارشاد الى نواحى العمل « ولربك
فاصبر » .

للمكذبين عاقبة سيئة

ثم تأخذ السورتان ، كل بأسلوبها الخاص ، فى شد
ازره صلى الله عليه وسلم بتهديد المكذبين ؛ وبيان
ما أعده لهم عند الله من العاقبة السيئة والعذاب الاليم
فتقول الاولى : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم
قليلا ، ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا
أليما ، يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا
مهيلا » . .الى أن تقول : « فكيف تتقون ان كفرتم
يوما يجعل الولدان شيبا » وتقول الثانية : « فاذا
نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين
غير يسير ، ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا
ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع
أن أزيد ، كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا ؛ سأرهقه صعودا » .

وصف الجحيم

ثم تأخذ فى وصف الجحيم بما يذيب النفوس ويبدد
نياط القلوب ، وتختم الاولى « المزمل » بارشاد المؤمنين
دعاة الحق ، والمؤمنين بالحق ، الى ما يحفظ لهم عز
الحياة ، وسعادة الآخرة : « وما تقدموا لانفسكم من خير
تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا » . وتختم الثانية

بتسجيل نكبة المعرضين عن الحق واعترافهم على أنفسهم بالكفر والطغيان ، والقسوة على الفقراء والمساكين : « قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين .. » الى أن تقول « كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا انه تذكرة ، فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

أما بعد . فهاتان سورتا الاعداد والعمل ، فمن شاء ان يصل الى السعادة فليعد نفسه بما رسمت سورة المزمل ، وليعمل على أساس مما رسمت سورة المدثر ، وليتذرع بالصبر والاخلاص ، وليسر بنفسه وأمته في ضوء تلك التعاليم المنبعثة عن الرب ، العليم بطيات النفوس ، الرحيم بخلقه ، والله للعاملين المخلصين نعم المولى ونعم النصير .

ســـــورة القيامة

عقيدة البعث

* كانت عقيدة البعث من أبعد ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم فى نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية . وكثيرا ما كانوا يلقون بكلمات يزعمون أنها براهين تحيـــل وجودها . وتمنع التصديق بها « أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ » . « من يحيى العظام وهى رميم ؟ » . « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وكان القرآن يلاحقهم فى ذلك بانذاراته المتكررة ، وتأكيداته المتعددة ، وبراهينه الحية الواضحة ، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها وأسماء مقدماتها وأهوالها، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عنيت بتأكيده هذه السور ، ففيه الواقعة ، والغاشية ، والحاقة ، والقارعة ، وفيه التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، ولا نكاد نجد بعد ذلك سور من القرآن الا قد عرضت لتلك العقيدة فى ناحية من نواحيها .

والواقع ان الايمان بالجزاء أقوى ما يغرس فى النفس الايمان بالحق ، والايمان بالفضائل ، ويبعث فيها داعية الخير وطاردة الشر . وهذه سورة القيامة تجىء بعـد سورة المدثر التى سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على أنفسهم بالكفر والجحـــود ، فتؤكد أمر القيامة ، وأن تحققها ، فى وقتها الذى يعلمه

الله ، أمر بين لا يحتـــاج الى قسم : « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

واذا كان من سنة الله فى القرآن أنه لا يقسم فى موضع الحاجة الى القسم الا بما عظم خطره من مخلوقاته، ودلت العبارة على ان القيامة لا يحتاج فى ثبوتها الى قسم بها عليها ، ولا بالنفس اللوامة عليها ــ كان فى ذلك ارشاد الى ان القيـــامة وكذا النفس اللوامة من أعظم مخلوقاته خطرا ، وأقواها أثرا ، وأظهرها وجودا ، وفى هذا تقرير لتحققها ووجودها .

النفس اللوامة

وفى ضم القسم بالنفس اللوامة الى القسم بيوم القيامة ارشاد آخر الى مكانة هذه النفس التى لا تترك صاحبها عند درجة يلام عليها ، بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الكمال ، فهى على الدوام تؤنبه على الدرجات الدنيا ، وتدفعه الى الدرجات العــلا ، حتى يعتلى أشرف المنازل فى هذا اليوم الخطير .

ابطال دواعى الانكار

وبعد هذا الاستدلال المملوء بألوان من التأكيدات ليوم القيامة ، تأخذ السورة فى ابراز ما احتوت عليه نفس الانسان الجاحد من الظنـــون والاوهام التى زينت له الانكار والجحـــود « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ؟ » . ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتلعه من جـذوره : « بلى قــادرين على أن نسوى بنانه » . قادرين على جمع عظامه ، واعادة تركيبه الى آخر ما يبلغ به حد الكمال الخلقى ، وهو تسوية البنان والاطراف .

ثم تبرز السورة شأنا آخر ــ كان له أثره في أنكار البعث والقيامة ــ غير ظن العجز عن الاعادة : تغلبت على الانسان شهوته ، واندفع بها فى لذته فنسى البعث بل وأنكره ليفك نفسه من قيوده فيكون حرا طليقا فيما يشتهى : « بل يريد الانسان ليفجر أمامه » . فلم ينكره نزولا عن برهان ، وانما هو محاولة التفلت من سلطان التكاليف والمؤاخذة ، ولقد أبعد فى ذلك حتى سأل سؤال المستهزئين : « يسأل أيان يوم القيامة » وهنا تصف له الآيات ما سينزل به من الاهوال التى تحيط به ، والتى لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه : « فاذا برق البصر وخسف القمر يقول الانسان يومئذ أين المفر ؟ كلا لاوزر ، الى ربك يومئذ المستقر » .

وهنا تقدم له صحف أعماله ونياته فينبأ بما قدم وأخر ، بل وتكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه ، وعندئذ يحاول أن يخلص من صحيفته ، فيعجل بقراءتها لتطوى ويفرغ من حسابه وموقف خزيه ، فيعلن بأن الامر في ذلك ليس اليه وانما هو الى الله صاحب الشأن فى عرض الاعمال واظهار السيئات : « لا تحرك به لسانك لتعجل به أن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

ثم تبرز السورة من نفس الانسان داعيا آخر لانكار البعث ، وهو محبة الدنيا التى تطمس عليه جانب الآخرة : « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » .

وهنا تعرض السورة ان الناس فى هذا الموقف ابرار وفجار : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » . ثم تحذرهم الركون الى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما

تبلغ الروح الحلقوم ، ويعجز الطبيب والكاهن . ويرى مشهد الفراق : « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق » . وهنا يسمع أسباب أحزانه « فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى أهله يتمطى » يختال ويتكبر .

الجزاء مقتضى الحكمة والعدل

ثم تختم السورة بتقرير القدرة على الاعادة ، وانها من نوع القدرة على الخلق الاول ، وان الاعادة لتحديد المسئوليات ، والجزاء على الاعمال أثر من آثار العناية بالانسان وتكريمه ، وانه لا يمكن ـ وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع ـ أن يتركه سدى وهملا كالعجماوات دون حساب ولا جزاء ، رسم له شرائعه ، ووهبه قوى العمل ، وقوى التسلط على ما خلق ، وأنشأه عاملا قويا مفكرا من مويهة قذرة ، ثم أحاطه بعناية بما ينعم به فى حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته ، فلابد له اذن من يوم يسأل فيه عن النعيم ، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسيء فضل الله وعدله ، وهو ذلكم اليوم الموعود : « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » . آمنت بالله العظيم

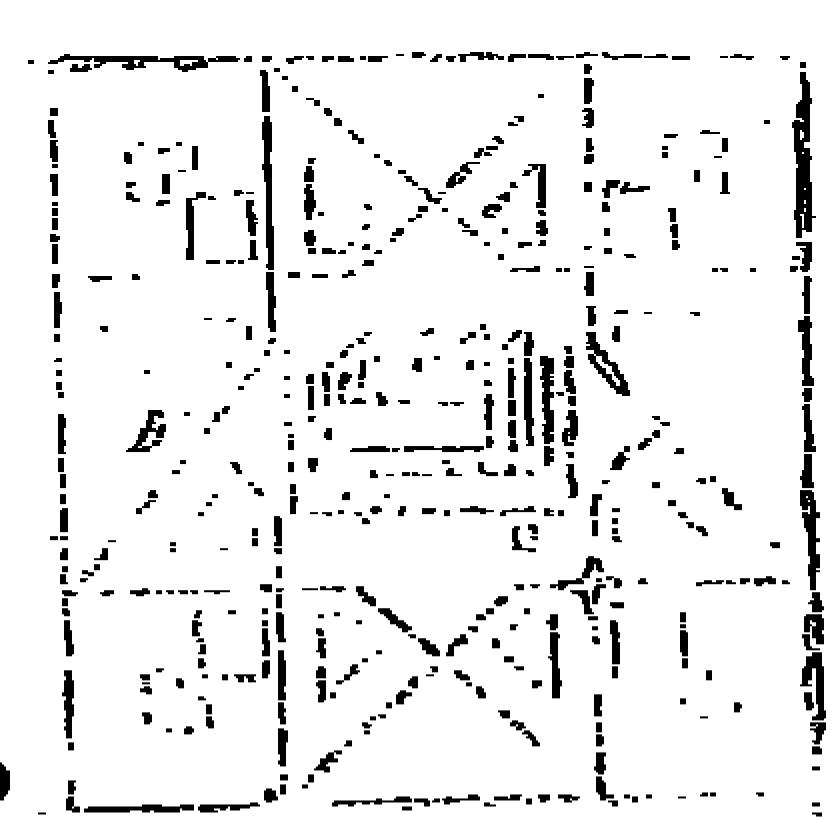
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس

الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٣٦٤٨ ـ ١٩٨٣

الترقيم الدولى : ١ ـ ٠٣٧ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN



هذا الكتاب

كتب المغفور له الاستاذ الجليل محمود شلتوت شيخ الازهر السابق مؤلفات وبحوث عديدة تناولت الكثير من نواحي الاسلام وشئون المسلمين . وأصدر تفسيرا للقرآن الكريم يعد مرجعا عصريا من أهم التفسيرات التى صدرت فى السنوات الاخيرة .

وهذا الكتاب ـ الذى اشرف فضيلته على مراجعته قبيل وفاته بأيام ـ ليس تفسير الكلمات ولا الآيات . وانما هو سعى بين يدى القرآن نفسه يلفت النظر الى ما فيه من دعوة الحق وموقف الانسان من هذه الدعوة . . انه يهدف الى حمل المسلمين على أن يتجهوا مباشرة الى القرآن ويقفوا امامه فى اجلال يستلهمونه الهداية فى مشاكل الحياة . . ومن هنا كان عنوانه : ((الى .. القرآن الكريم)) .